تنبيهات الطنطاوي على مسيرة التعليم

جمع وإعداد

د . محمد بن عبد اللّه الهبدان

المشرف العام على مؤسسة نور الإسلام

مؤسسة نور الإسلام

www.islamlight.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد :

فقد يسر الله لي قراءة كتب الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله ووجدت فيها فوائد عديدة كنت أقيدها أثناء القراءة ومن تلك الفوائد والشوارد ما يتعلق بمسيرة التعليم فأحببت جمعها لعل الله أن ينفع بها وهي مرتبة على نحو مما يلي :

أولاً : فوائد تتعلق بوزارة التربية والتعليم .

ثانياً : فوائد تتعلق بالمعلم .

ثالثاً : فوائد تتعلق بالمنهج .

رابعاً : فوائد تتعلق بالطالب .

خامساً : فوائد تتعلق بالمدرسة .

سادساً : الأعداء والتعليم .

سابعاً : فوائد عامة .

ولا يعني ذلك أني أحصيت كل شيء في هذه الموضوعات فلربما فاتني من ذلك شيء كثير لكن هذا ما استطعت فعله وجمعه ، والله أسأل أن ينفع بهذا الجميع وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

جمعه ورتبه

د . محمد بن عبد الله الهبدان

المشرف العام على شبكة نور الإسلام

مؤسسة نور الإسلام

www.islamlight.net

أولاً : فوائد تتعلق بوزارة التربية والتعليم

من المفهوم المشهور ، الذي لا يحتاج إلى إيضاح ، أن هؤلاء الشباب لا يمكن أن يقرؤوا كتب الفقه والتفسير والحديث ولو طبعتها على ورق أبيض ، فأخرجتها عما ينبزونها به من أنها (كتب صفراء) ولا يمكن أن يدخلوا المساجد فيستمعوا فيها درس العلم ، أو يحضروا مجالس الوعظ لأنهم نفروا منها وأبعدوا عنها ، ولا يمكن أن يتعلموا علوم الدين في مدارسهم (النظامية) الرسمية ، لأن القائمين عليها ، في مصر والعراق والشام ، لم يقتنعوا إلى اليوم بأن للدين علوما محترمة تستحق أن تضيع في درسها سبع ساعات في الأسبوع ، ولم يروا في علوم الدين ما هو أهل ليعنى به كعنايتهم بالرسم والغناء .

ونسوا ، أنهم لم يعلموا ، أن من الأوربيين من يهتم بهذه العلوم ، ويربع من قدرها ، ويعلي مكانها ، وأن رجلا جرمانيا اسمه (برتزل) قدم علينا الشام منذ سنوات ، فعرفنا بنفسه ، وأرانا بطاقته ، وإذا هو قد كتب عليها (فلان : متخصص بقراءة القرآن الكريم) يفخر بذلك ويعتز به ، وسأل عن الذي طبع كتاب (النشر في القراءات العشر) فلما لقيه أكبره وعظمه ، وعلمنا بعد أنه ملم بعلم القراءات ، عارف برواياتها ، قارئ للقرآن الكريم ، ناشر لكتب في هذا العلم عدة ، ومن شبابنا من لا يعرف ما الإدغام وما الإخفاء ، وما المخارج وما الأداء ، ويرى اشتغاله بذلك ذلة له ، لأنه لا يشتغل به (على ما أفهموه ...) إلا رجعي غير متمدن ، وشيخ جامد ... وأمثال (برتزل) أكثر من أن يحيط بهم حصر . (فصول إسلامية – صفحة 142، 143)

* * *

خبرني يا سيدي هل تستطيع إذا اقتصرت على الشهادة ، وجعلتها وحدها مقياس الرجال ، وبعث الله جدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، هل تستطيع أن تجعله معلما في مدرسة أولية في قرية من القرى ؟ وهل يستحيل على الله أن يجعل في هذا العصر من هو كجدك ، في علمه وعمله ، وهو مثله لا يحمل شهادة ، بل إن أمامنا يا سيدي مثلا ظاهرا ، هو الأستاذ العقاد رحمه الله ، .

(ذكريات 8 – 147).

كانت لي مواقف آذيت فيها الرؤساء بمخالفتهم ، وآذوني في رزقي وفي وظيفتي بسلطانهم ، دعيت مرة أن أكون من اللجنة العليا الفاحصة في امتحان الشهادة الابتدائية (السيرتفيكا) ، وكان يعقد له على عهد الفرنسيين امتحان عام ، وكنا يومئذ نعنى بالعربية عناية قد يعجب منها من يسمع الآن مخبرها ، من ذلك أن التلميذ الذي يخطئ في الإملاء ، أي في مواقع الهمزات وسط الكلمة ، يكسر له درجة من عشر (وكانت الدرجة الكاملة عشرا) ، فإن كان الخطأ فاحشا كسرت له درجتان ، أي أن خمسة أخطاء في الإملاء تعطيه صفرا ، ومن أخذ صفرا في مادة من المواد ، مهما كانت ، يرسب في الامتحان ، ولو أخذ أعلى الدرجات في جميع الدروس ، كنت في لجنة اللغة العربية ، وكان رئيسها شيخنا الشيخ عبد القادر المبارك ، رحمه الله عليه ، وقد عرفتم مما مضى من هذه الذكريات منزلته في الحفظ والاطلاع على اللغة ، وأنه كان قليل النظير، ولكنه – وأقول هذا مضطرا – كان أمام الرؤساء لينا،لا يستطيع أن يثبت في وجه واحد منهم ، أو أن يرد إرادة لهم ، وكان المشرف العام على الامتحان مستشار المعارف ، أي مسيو راجية) الذي تقدم ذكره ، ونشرت صورته لما كانت تنشر هذه الذكريات في "المسلمون" وكان في الشام مثل دنلوب المشهور في مصر ، وكانت أسماء الطلاب في أوراق الامتحان مكشوفة .

فجاءت ورقة لتلميذ من مدرسة نصرانية ، والمستشار يريد أن تهتم به اللجنة ، وأن ينجح . أحصينا أخطاءه في الإملاء، فبلغت عشرا ، وخمس منها كافية ليرسب الرسوب النهائي في الامتحان ، أراد أهل اللين والمسايرة من إخواننا أن يعطوه ولو ربع درجة ، لئلا يأخذ الصفر ، وأصررت أنا على تطبيق النظام وعلى أن يأخذ الصفر . وكانت مشادة ، احتكمنا فيها إلى شيخنا المبارك رحمه الله ، فكأنه مال معهم ، وكبرت المسألة حتى جاء المسيو (راجيه) ، والله بنفسه ، ومعه ترجمانه ميشيل السبع ، ويعرف القصة بعض إخواننا من المسنين ، فدخل علي فكلمني باللين ، ثم شدد في كلامه ، ثم هددني .

قلت للترجمان : بلغ سعادة المستشار أنني أعلم أنه يقدر أن يأخذ ورقة من فوق المكتب ، وأن يكتب فيها قرار عزلي من الوظيفة ، ولا يرد قراره أحد . يستطيع ذلك ولكنه لا يستطيع ، لا هو ولا أكبر منه ، أن يجعلني أوقع على ما أعتقد أنه باطل . وثبت في موقفي حتى رسب الطالب . وكان لذلك صدى في دمشق .

(ذكريات– 3 صفحة 173)

* * *

وأنا من أكثر من نصف قرن أتابع الامتحان ، أقول لك: فتشوا عن طريقة أخرى تسد مسده ، وتقوم مقامه ، فإنه ليس المقياس الصحيح .

ولقد عرضوا مرة مئة ورقة على مدرس ليقدر ما تستحق من الدرجات ، فقدرها ، ثم عرضوها عليه بعد حين ، فاختلف التقدير، وكلفوا مرة أستاذا كبيرا أن يكتب هو الجواب الصحيح الكامل ، فكتبه فبدلوا فيه قليلا ، وكتبوه بخط آخر وعرضوا عليه الأوراق فأعطاه درجة فوق الوسط .

ويختلف حكم الأستاذ على الجواب باختلاف حاله : رضا وسخطا ، وانبساطا وانقباضا ، وقد يرى الغلطة الصغيرة حينا ، ويمر حينا آخر بالكبيرة فلا يراها ، وإن كان في خصام مع زوجته ، قد هاجت أعصابه وفسد مزاجه ، ظهر ذلك في ميزان حكمه على أوراق الطلاب .

ثم إن الامتحان في بلادنا (أعني البلاد العربية) أكثره امتحان للذاكرة وحدها ، لا للتفكير ولا للعلم ، ولقد وقع لصديق لنا من قديم أن أرسل ولده يدرس الاقتصاد في إنجلترا ، فاستوعب كتبه ، وأحاط بقواعده ، فلما كان الامتحان لم يجيء السؤال مما حفظ ، بل قالوا له : هذا مصرف رأس ماله كذا له من الديون على الناس كذا ، وعليه كذا ، ووصفوا له حاله) ثم قالوا له استعمل ما تعلمت خلال دراستك برفع شأن المصرف ؟ .
وإذا كان امتحان في الطب مثلا : لا يسألوه عما حفظ من أعراض الأمراض ودرجاتها ، وأدويتها ، ولكن يعرضون عليه مريضا ، ليكشف عليه ، وليفحص عن أمره ، وليعرف حقيقة مرضه ، وليصل إلى دوائه .

وقد حاولت لما كنت مدرسا في القسم العالي أن أبدل شيئا من نظام الامتحان ، وتحت يدي وثيقة رسمية أثبتها بنصها هنا للتاريخ .

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – مكة المكرمة .؟

قسم الدراسات العليا ، التاريخ 1390/3/3هـ الرقم 14/263 ، نرفق لفضيلتكم صورة من اقتراح الأستاذ على الطنطاوي الذي أدلى به شفهيا في جلسة قسم الدراسات العليا للإطلاع عليه ودراسته في الجلسة القادمة التي تعقد يوم الاثنين 1390/3/5هـ ، الموافق 11مايو (آيار) .

عميد كلية الدراسات الإسلامية ، عبدا لله عبد المجيد بغدادي .

أما الاقتراح فهذا نصه :

السادة أعضاء مجلس قسم الدراسات العليا ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تنفيذا لقرار المجلس الكريم ، في جلسته 22 صفر أعرض عليكم خطيا الاقتراح الذي كنت أدليت به شفهيا في الجلسة ليدرسه المجلس إذا وجد فيه ما يستحق الدراسة .

وهو أن القسم العلمي إنما أنشئ ليتخرج به علماء في الشريعة . والعلم كما قالوا (في الصدور لافي السطور) ولابد للعالم من أن يكون في ذهنه صورة واضحة لقواعد العلم الأساسية ، ومسائله المشهورة ، ولكن لا يطلب منه أن يستظهر فروع المسائل وغرائبها ، ولا أن يحيط بدقائق العلم بحيث يجيب كل مستفتٍ من حفظه ، ولا أن يعرف درجة كل حديث ومخرجه ، ويحفظ ذلك عن ظهر قلب . بل يجوز له (بل ويحسن به) أن يرجع إلى الكتب قبل أن يفتي . أي أن عمل العالم أن يعرف المراجع أولا ، فإن كان مسئولا عن حكم فقهي عرف مظان وجوده ، وإن كان يريد التحقق من درجة حديث عرف أين يبحث عنه، ثم يقوم هذه المراجع بأن يميز ما يعتمد عليه ويوثق به منها ، وما لا يوثق به ولا يعتمد عليه .

ثالثا : أن يعرف موضوع المسألة من المرجع .

رابعا : أن يفهم العبارة إذا وصل إليها ويدرك المراد منها .

لذلك أقترح أن يكون الامتحان امتحانين :

امتحانا لاختبار ملكة الطالب ومبلغ إلمامه بمسائل العلم ، واستظهاره لأمات (أي لأمهات) مسائله يجيب فيها بلا استعانة بكتاب ، ولا رجوع إلى مرجع ، كما هي الحال في الامتحانات العادية .

وامتحاننا أهم ، يلقى عليه فيه (في الفقه مثلا) مسائل مما يقع للناس ويسألون عنه العلماء ، ليفتي فيها ، أو نلقي عليه (في الحديث) حديثا مما يشتهر على الألسنة ، ويتردد على الأقلام ليبين درجته ، ومبلغ الحجية فيه .

ونسمح له أن يستعين بما شاء من المراجع القديمة (لا المباحث العصرية الجديدة) بشرط أن لا يكون عليه تعليقات خطية ، ولا إشارات إلى بعض الصفحات ، ولا هوامش ولا تعليقات .

وإذا كان الامتحان الأول (أي اختبار الملكة) شفهيا كان أحسن .

وبذلك نختبر علم الطالب ومقدرته على المراجعة ، أما أن يقتصر السؤال على مواد الكتاب الذي درسه أو المقدار الذي درسه من الكتاب ، فلا يختلف عن امتحان المرحلة الابتدائية والإعدادية .. هذا اقتراحي أقدمه مع تحياتي.

23/صفر 1390هـ . علي الطنطاوي .

(ذكريات – 8 – صفحة 242 ، 243 ، 244)

* * *

يا إخواننا الدين النصيحة ، وإني ناصح لكم ، فاهتموا بمعلم الابتدائية قبل أستاذ الجامعة ، وأعطوه الكثير ، ثم طالبوه بالكثير ، فإنه الأساس ، والبناء الذي يعلو مئة طبقة في الهواء ، ومن يكون أساسه ضعيفا يهوي وينهار . لقد عرفتم أني عملت في المدارس الأولية في القرى ، وستعرفون أني عملت في المدارس المتوسطة والثانوية وعملت في جامعات كثيرة وفي أقسام الدراسات العليا في هذه الجامعات ، وأشرفت على إعداد رسالات الماجستير والدكتوراه .. وعملت بنين وبنات ومشائخ في كليات الشريعة وفي المساجد .

فهل تريدون أن أخبركم بالذي رجعت به بعد هذه الجولة الواسعة التي شملت الشام والعراق والسعودية ولبنان ومصر حينا ، وامتدت خمسا وخمسين سنة ، لأنني بدأت التعليم قبل أن أكمل أنا تعلمي .

أقول لكم الحق : لقد وجدت أنه ليس شيء أبرك ولا أنفع للناس ولا أجلى للصواب من تعليم تلاميذ المدارس الابتدائية .

المعلم الابتدائي هو الأساس ، والبناء الذي حدثونا عنه في أمريكا وقالوا إن فيه مئة طبقة (مئة دور) بعضها فوق بعض لا يقوم ولا ينتفع به إن لم يحمله أساس متين غائص في الأرض . والأساس لا يرى ولكن البناء لا يقوم إلا عليه .

هذا الأساس هو التعليم الابتدائي ، لايراه الناس على حقيقته ولا يقدرونه قدره .

ولو كان بيدي شيء من الأمر ، أو كان لرأيي قليل من الوزن ، لاقترحت أن يشترط في معلم الابتدائي ، الشهادة الجامعية ، وفوقها دورة في التربية وتعليم الصغار، وأن يعطى مثل راتب أستاذ الشهادة الثانوية . نطالبه بالكثير بعد أن تعطيه الكثير .

إن ضعف معلم الابتدائي لا تصلحه قوة مدرس الثانوي ولا أستاذ الجامعة . .

(ذكريات ـ□ – صفحة□□□)

* * *

كان عنوان هذه الكلمة (دروس الديانة في المدارس) .

وأولها : قرأت تصريح وزير المعارف الذي بين فيه أن الوزارة لا تفكر في تخفيض عدد ساعات الديانة ، بل تبحث زيادة عددها .

وأنا أشكر الأخ الوزير الدكتور عبد الوهاب حومد ، ولم أكن أنتظر منه إلا هذا ، لذلك ترددت في تصديق ما نقله الناس عنه من أنه يريد نقص هذه الساعات ، أو إعفاء الطلاب من الامتحان في علوم الدين .

وما كتبت هذه الكلمة لمجرد الشكر بل لأنبه الوزارة إلى أمر ما أحسبها إلا متنبهة له ، عارفة به ، ولكنها تتغافل عنه ليس عندنا شيء اسمه علم الديانة ، ولا يعرفه علماء المسلمين ، وليس في مكتبتنا كتب في هذا العلم . إنما الذي عندنا : علم الفقه ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ، وعلم التجويد ، وعلم الحديث ، وعلم التفسير ، وأشباه ذلك من العلو م التي ألفت فيها آلف وآلف من الكتب ، وظهر فيها آلف من العلماء .

تجمعها كلها كلمة الدين ، كنا نجمع كلمة الرياضيات في المدارس بين الحساب والهندسة بأنواعها والجبر والمثلثات ، وكما تجمع كلمة الطبيعيات بين الفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي وعلم النبات وعلم الحيوان . ولو قلنا لمدرس الرياضيات أعطيناك ساعة في الأسبوع أو ساعتين لتدريس هذه المادة ، لصعق من دهشته وقال : وماذا

أصنع بساعتين ؟ هل أدرس فيهما الحساب ، أم الهندسة ، أم الجبر ، أم ماذا ؟ وكل علم من هذه العلوم يحتاج إلى أكثر منها ؟ .

فكيف نطالب مدرس الدين أن يوسع ساعتين لهذه العلوم كلها ؟ .

وسيضحك كثير من ﴿التقدميين !﴾ من هذه المقابلة لأنهم تعودوا أن يروا الدين دائما في المرتبة الثانية ، ولأنهم ربوا على احترام هذه العلوم وتقديمها .

ولكن هل هذا هو الواقع ، أم أنهم هم المخطئون ؟ .

الصحيح أنهم هم المخطئون . وأيسر دليل على خطئهم أنهم يحكمون على الدين من غير معرفة به أو اطلاع عليه . ولو حللت ما في نفوس هؤلاء الإخوان ، لوجدت أنه ليس للدين في نفوسهم إلا صورة مشوهة ، رسمها فيها بعض من عرفوا من جهلة المشايخ ، ومن سخفاء العامة الذي يدعون التدين والصلاح .

ولقد صرح لي بهذا الأستاذ ساطع الحصري في حديث طويل كان بيني وبينه ، حيث كان يسكن في مصر في شارع شريف باشا سنة ، بحضور الأخ الأستاذ نهاد القاسم ن ونشرته في يومه .

ونحن نقر بهذه المبادئ الغربية التي تقول بفصل الدين عن العلم ، والدين عن السياسة . إنها صحيحة بلا شك، لكن بشرط أن نفهم معناها عند من وضعوها .

إن الغربيين الذي وضعوا هذه المبادئ يقصدون بالدين ما يحدد صلة الإنسان بالله فقط . ومن هنا قالوا الدين لله والوطن للجميع . أي العبادات ، وبين السياسة والعلم . إن العبادات لا تتبدل ولا تتغير بتغير السياسة وتبدل نظريات العلم .

ولكن الإسلام ليس دينا فقط يحدد صلة الإنسان بالله . بل هو دين وتشريع وقانون دولي وأخلاق . وهو يحدد صلة الأفراد بعضهم ببعض ، وصلة الأفراد بالدولة ، وصلة الدولة بالدول الأخرى ، ويرسم طريق الأخلاق والسلوك . .

(ذكريات - صفحة)

* * *

فالإسلام إذن ليس دينا فقط لتنطبق عليه هذه القواعد ، بل هو نظام كامل للحياة لا يشابهه دين من الأديان التي يتبعها البشر ..

والعلوم الإسلامية بناء على هذا الأساس قسمان : قسم منها للدين فقط كالعبادات ، وهذا للمسلمين وحدهم ، وقسم هو من الثقافة العامة ، كفهم القرآن الكريم الذي هو النص البياني الأول في اللغة العربية . ودراسة الفقه الإسلامي في المعاملات على اعتبار مصدرا تشريعيا في العلم كله ، قديمه وحديثه ، بكثرة نظرياته الحقوق وعمقها ، ولأن غير المسلمين من أمم أوربا ، تدرسه أوفي دراسة في كليات الحقوق فها ، وتعرف قدره ، وتهتم بنصوص الآيات والأحاديث من الناحية البيانية ، وما على ذلك من العلوم الإسلامية التي يجب أن يدرسها في رأيي المسلم من الطلاب وغير المسلم ، للبيان والبلاغة ، وللخلق ، وللثقافة . وهذه كلها أمور نشترك فيها جميعا ، لأنها تراث عام ، لا يختلف فيه مسلم عن نصراني ، ولأن أعلام النصارى وفصحائهم ، وأهل البيان فيهم ، كاليازجيين ، والبستانيين وفارس الخروي وبشارة الخوري الشاعر ، وأمثالهم ، ما بلغوا هذه المنزلة في الأدب ، التي تقصر دونها الهمم إلا لأنهم درسوا القرآن، الكريم والحديث وأخذوا من بيانهما .

وما ضر الأستاذ فارس بك أنه مطلع على الثقافة الإسلامية أكثر من كثير من أهلها ، بل نفعه ذلك ، وزاده رفعة بين الناس .

فلماذا لا يدرس الطلاب جميعا هذه العلو م ؟ لا ما يتعلق منها بالدين الإسلامي وبالعبادات ، فهذا للمسلمين وحدهم . بل ما يتصل منها بهذه الثقافة اللغوية والعقلية ، وإذا كان الطلاب المسيحيون يكرهون أن يقرءوها على المشايخ فيدرس الدين ، فإن في غير المشايخ ، وإن في غير العرب ممن يستطيع أن يقرئهم هذه العلوم ، لأنهم أدركوا نفعها ، وقدروها قدرها فاهتموا بها وأقبلوا عليها وأتقنوها .

أقول هذا ليعلموا أننا لا نريد من العناية بدرس الدين وإدخاله في الامتحانات الخاصة والعامة أن نضطرهم إلى ما يكرهون ، ولا نريد أن نحتال عليهم لنجبرهم على الدخول في الإسلام وهذا الذي أقوله كلام صريح ظاهر ليس له خبيء باطن ، ما فيه إلا ما تدل عليه ألفاظه ، أما هؤلاء الذين يدعون أنفسهم بالتقدميين ، والذين رباهم الأجانب ، والذين يرون في انتشار الإسلام (بعبع) كالذي كان يخوف به الأطفال ، ويخشون اسمه ولا يريدون الاقتراب منه ، لأن أعداء الإسلام صوروه لهم على غير حقيقته ، أو لأن بعض الجهلة من المنسوبين إليه قد أعانوا هؤلاء الأعداء على ما يريدون (والمقالة طويلة).

وبقيت المعركة مستمرة ، وكانت سجالا بيننا وبينهم ، ولكننا نتقدم خطوتين ، فيؤخروننا بعدهما أربعا . نسهر الليل نضع بأيدينا حجرا على حجر لنقيم الجدار ، فإذا طلع النهار، جاء من يحمل المعاول الكبار ليهدم ما بنينا ، وقديما قالوا :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه　　إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

هذا إذا كان الهادم واحدا ، ولكننا كنا أمام مئات لا يهدمون بأيديهم كما نبني بأيدينا ، ولكنهم يهدمون بالمعاول ، بل بالبارود والقنابل .

وكلما مر علينا يوم بكينا فيه منه ، جاء بعده غد بكينا فيه عليه ، كالذي كان مع اليهود وأنصار اليهود في فلسطين : نرفض الأمر فيه الحيف علينا ، والمضرة بنا ، ثم يأتي بعده ما هو أشد ضررا وأنكى فينا أثرا ، فتمنى لو كان الأول قد دام ! . .

(ذكريات□ صفحة□□□،□□□)

ثانياً : فوائد تتعلق بالمعلم

لما نقلت هذه النقلة كنت في قلب الشتاء ، وكنت أستطيع أن أطلب إجازة ولكني لم أقبل الهزيمة ، وكانت همة الشباب تملأ جوانحي ، فحزمت حقيبتي وركبت إلى (صيانايا) فلما بلغتها ووقفت السيارة الكبيرة فيها ، ونزل منها ركابها ، قلت : ولكني أريد الوصول إلى (رنكوس) ، فقالوا : مستحيل ، قلت : ولم ؟ قالوا : الطريق مقطوع ، قد سدته الثلوج ، قلت لصاحب السيارة : أدفع لك ما تردي فأوصلني ، قال : ما عندنا ركاب فهل تدفع أجر المقاعد كلها ؟ قلت : نعم ، قالوا : وإن لم نستطع الاستمرار في السير ؟ قلت : إن لم تستطيعوا فعودوا والأجرة لكم .

وسرنا وسط الثلوج ، في طريق جبلي خطر فلما بلغنا نصفه أو أكبر قليلا لم يعد بالإمكان أن تتقدم السيارة ذراعا واحدا . فقلت : عودوا وأنا أمشي .

قالوا : كيف تمشي ؟ الطريق خطر ، ولا يخلو من وحش ، والثلوج كما ترى .

فأصررت ومشيت ، مشيت نحو ساعتين ونصف الساعة ، الله وحده يعلم ما قاسيت فيهما ، وكان البرد يقص العظم ، ووصلت ، فسألت : أين المختار (أي العمدة) ، فنظروا إلي مدهوشين كأنهم يرون في جنيا طلع عليهم ، وقالوا : من أنت ؟ وكيف جئت ؟ قلت : أنا المعلم ، وقد جئت ماشيا من نصف طريق (صيدنا يا) .

وكانوا رجالا صلاب العود يقحمون الأهوال فعجبوا من شاب شامي يبدو في أنظارهم رقيق العود ، قليل الصمود ، يفعل ما لا يقدمون على فعله .

ودلوني على (المختار) وكان قاعدا مع صحبه على دكة (مصطبة) يواجه شمس الشتاء الضعيفة ، فسلمت فردوا ردا ضعيفا ، وقالوا : من الأخ ؟ .

فخبرهم من كان معي ، أنني المعلم ، وأنني جئت ماشيا ، فكبرت في أعينهم قليلا ، ودعوني إلى القعود ، ثم قال المختار : لا يا جماعة ، بل يدخل فيأكل شيئا ويستريح .

ودخلت معهم إلى (المضافة) فشربت الشاي وأكلت ما حضر ، وسألت : أين المدرسة ؟ وأين تلاميذها ؟ .

فسبوا الحكومة ، وشتموا المعلم ، وفهمت من كلامهم أن الوزارة لم تستأجر دارا للمدرسة ، ولا صنعت ، ولا صنع المعلم شيئا للقرية ، وتلقيت أنا هذه الشتائم بوصفي ، الموظف الحكومي الوحيد بينهم .

وكان الناس قد تواردوا على (المضافة) ليروا هذا المعلم العجيب الذي بلغ حبه التعليم وشغفة به ، أن يخوض إليه الثلج ، ويلتحف البرد ، ويتعرض للمهالك .

فلما كثر عددهم ، قمت فألقيت عليهم خطبة نارية مجلجلة ، أثرت بها وطنيتهم ، ونبهت أيمانهم وحييت بطولتهم ورجولتهم ، ورغبتهم بالعلم ليكون من أبنائهم من يحتل هذه الكراسي ، التي يقتعدها الجواسيس والمنافقون من رجال السلطة وأذناب الاستعمار .

وما انتهيت حتى صرت عندهم شيئا آخر ، غير الذي رأوه أول مرة واستأذنتهم أن أرجع اليوم ، وأعود إليهم إن شاء الله بعد أن تفتح المدرسة ، وتستكمل عدتها ولم أرجع ماشيا ، بل تطوع واحد منهم عنده سيارة ، فحملني إلى قلب (صيدنايا) .

هل كان يخطر على بالي يومئذ أنها ستمر إحدى وخمسون سنة ، وأنني سأكون في مكة ، وأن أذكر تلك الأيام وقد انطفأت حرارة ألمي منها ، حتى لأتحدث عنها كأن غيري هو المصاب فيها ؟ .

كنت أراها في حينها هي الواقع كله ، كنت أحسب أنها آخر الدنيا ،أنه كتب علي تجرعها وإن لم أسغها ، فالحمد لله ، أن جعلها مجرد ذكرى ، وصيرها حديثا يروى . فليأخذ المتألمون المعذبون العبرة من هذا الذي أقول ، فما أسرد خيالات ، ولا ألقي مواعظ ، بل أروي لهم ما وقع لي ، وسيأتي على هؤلاء المتألمين المعذبين ، بمرض ينغص عليهم عيشتهم ، أو فقر ينكد عليهم أيامهم ، أو سجن ظالم يقيد أيديهم ، ويحرمهم أهلهم وأولادهم ، أوعذاب مستمر من جبار آثم يغديهم به ويمسيهم ، سيأتي عليهم يوم يكون فيه هذا كله ذكرى في النفس ، وحديثا في المجالس . ومهما اشتد الضيق ، فالفرج موجود . اقرؤوا ما كتب الأستاذ مصطفى أمين – عما قاسى في سجنه ، وما كتب غيره عما في سجون الظالمين ، ومعتقلات المجرمين ، وهاهو ذا قد نجا منها ورجع يكتب والتفاؤل ملء برديه ، والأمل يظهر على سن قلمه ، وإن لم ير البائس الفرج في الدنيا ، فما الدنيا ؟ أيام معدودة ، وإن الحياة الباقية لهي الحياة الآخرة ، وهنالك يعوض المظلوم تعويضا يرضيه ، ويرى الظالم ما قدم لنفسه .

(ذكريات :صفحة [illegible])

* * *

❋ ولما كنت أدرس في الثانوية المركزية أول عهدي ببغداد دخل علي الصف (الفصل) يوما شاب في مثل سني أو يكبرني قليلا ، وكان من عادتي في دروسي أن أدع الباب مفتوحا ، فمن شاء أن يدخل دخل ، ومن أراد من طلابي أن يخرج خرج ، لا أمنعه ولا أجبره على أن يستمع إلي بالعصا ، ولو فتح الطالب كتاب الكيمياء في درس الأدب ، بل لو قرأ فيه قصة من القصص لما قلت له شيئا ، ما كنت أمنع إلا شيئا واحدا هو أن يحدث الطالب صوتا يعكر علي صفاء درسي ، فإن لم يكن منه صوت فعل ما أراد ، مما لا يحرمه شرع ولا قانون ولا عرف .

حسبت هذا الشاب أحد الذين يدخلون ليستمعوا ، ولم يكن ذا سن ولا هيبة لا شيء فيه يدل عليه ، فقعد في آخر الصف ، ومضيت في درسي ، ورأيته قد أخرج دفترا صغيرا فجعل يكتب فيه فقلت : حريص على الفوائد يدونها لئلا ينساها .

فلما انتهى الدرس وخرجنا لحقني الطلاب على عادتهم يمشون معي ، ومشى هو معهم ، فلما انتهيا إلى غرفة الأساتذة رجعوا ودخلت فدخل هو معي ، وافتتح القول بالثناء على درسي الذي سمعه ، وعلى مقالاتي التي قال : إنه كان يقرؤها في الرسالة ، وأنا لا أجد في مثل هذه الحال ما أقوله . لأن من سألني عما أعرف أجبته ، ومن حياني حييته ، ومن شتمني شتمته ، أما الذي لا ينطق إلا بمدحي فماذا أقول له ؟ اللهم إلا كلمات الشكر أعيدها وأكررها، ولا أتمنى إلا أن يخلصني الله من هذا الموقف الذي أراه (إلى الآن) أشق المواقف علي ..

فلما ظن أنه خدرني بمدحه ، وأنه تمكن مني ، وأنه عقل لساني بالحياء عن جوابه قال : أعرفك بنفسي أنا الدكتور فلان من مصر المفتش ألاختصاصي للغة العربية .

وأحسست أنه مد باللقب صوته ، ونصب عنده قامته ، وداني ما بين حاجبيه ، ووقف وقفة القائد الذي يريد أن يلقي أوامره فتطاع .

وأنا مهما حاولت أن أروض نفسي على طاعة المفتشين والرؤساء لا أستطيع ، وأجدني مدفوعا دفعا لا يقاوم إلى المنازلة وإلى المجابهة من يأمرني وينهاني مستعليا ، بما يكره،إلا اثنين من المفتشين والرؤساء .

(ذكريات □/□).

❋ ❋ ❋

وكنت أعرف (الفصل) الذي كلفت بالتدريس فيه ، فلم أدخل على المدير ، كما هو المطلوب من مثلي ، بل دخلت الصف (أي الفصل) رأسا ، وكنت من الحر قد نزعت ردائي (جاكيتي) وحملته ، وشمرت كمي عن طرف

ساعدي ، كأنني طالب كبير . ولا ينبغي للمدرس أن يصنع مثل هذا ، لا سيما في دروسه الأولى ، قبل أن يعرفه الطلاب ، ويثقوا من علمه وفضله ، ويثق هو من أدبهم معه واحترامهم له .

(ذكريات [illegible]/ [illegible]).

لقيني قبل العيد جماعة من المعلمين ، من الذي يدرس الواحد منهم أربعة وعشرين درسا في الأسبوع ، يحضر لها بالمراجعة والإعداد ، ويصحح وظائف التلاميذ ، ولنقل الحجارة أسهل من تصحيح الوظائف ، ويضبط الفصل ويديره ، وضبط الفصل وإدارته أصعب من إدارة وزارة كاملة ، لأن الوزير يكلم ناسا كبارا ، يعقلون ويقدرون النتائج ، ويفكرون قبل أن يعملوا ، والمعلم يخاطب صغارا ، لا يقدرون العواقب ، أيديهم إلى العمل أسرع من رؤوسهم إلى التفكير ، بل لعلهم لا يكادون يفكرون ، ومن عند الوزير مسئولون عن أنفسهم ، ومن في المدرسة من التلاميذ وراءهم أولياؤهم ، إن أحسنت رعايتهم وصدقت في تعليمهم وتهذيبهم لم يشكروك ، لأنك إنما تؤدي واجبا وجب عليك ، وإن قصرت في العمل ، أو شددت في العقوبة ، ذهب الأولاد إلى أبيهم مساء يبكون ، قالوا يا أبانا المعلم ضربنا ، وربما كان الأب عالي المكان ، أو كان من ذوي السلطان ، فنال المعلم الأذى .

أعرف هذا لأني بلوته حينا من الدهر ، بل ابتليت به ، ومسني من أجله الضر ، هذا وربما كان المعلم مقصرا بلا عذر ، قاس بلا مبرر ، يضرب الأولاد ضرب منتقم ، لا ضرب مرب معلم ، لذلك منع الضرب في المدارس ، وترك لراعي الإبل في البر لا للمعلم في المدرسة .

(ذكريات-[illegible]-صفحة[illegible]).

* * *

وإن مثال هذه الكلمات يلقيها معلم يجتمع له في قلب تلميذه الحب مع الاحترام ن هي التي تبقى على كر الأيام ، وإن نسيت محاضرات الفصل التي يكون فيها الامتحان . أضرب لكم عليها مثلا :

تجوز الصحراء ، فلا ترى إلا أرضا جرداء ، لا ظل و ماء ، ولا نبته خضراء ، فإذا نزل المطر اهتزت وربت وكسيت ثوبا أخضر من العشب والزهر ، وصارت مرعى للسوائم ومتعة للنظر ، فمن أين ترونه قد جاء هذا النبات ؟ .

من بذور صغار قد لا تأخذها من دقتها الأبصار ، قد ركب الله لبعضها ما يشبه الأجنة القصار ، تحملها الرياح فتلقيها بين حبات الرمال ، فلا ترى إلا تلالا من الرمل تتلظى تحت وهج الشمس ....

فإذا أنزل الله الأمطار ، وجمع الله لها (الظروف) التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات ، وكان منه الزهر البارع ، والثمر اليانع ، أو كان منه الشوك الجارح والسم الناقع .

وكذلك كل ما تسمعه لاسيما إن سمعته في الصغر ، إنه بذرة خير أو بذرة شر ، إذا جاءها (الظرف المناسب) وضعتك على طريق الجنة ، أو على سبيل النار . .

(ذكريات-□-صفحة□□).

* * *

فيا ليت مدرسي الفقه إن علموا الطلاب أحكام الحج عرضوا له مصور المشاعر ، وأماكن العبادة ، ليصلوا علوم الدين بحياة الناس في هذه الدنيا .

ولولا أني أبعد عن موضوعي ، لعرضت لشيء أعلم أن ليس هنا مكانه ، ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين ، هي أن دروس مدرسي الدين ، وخطب خطباء المساجد ، ومواعظ الوعاظ ، لا تبلغ من نفوس الناس غالبا مبلغها المرجو لها ، لأنها تأتي بعيدة عن الحياة منفصلة عنها ، فكأنها الآثار ، تقتني للإعجاب بها ، ولكنها لا تستعمل للاستفادة منها ، تعرض في الرائي البرامج وهي شتى ولعل منها ما يخالف الإسلام ، وأنا لا أقصر الكلام على المملكة بل أعمم ، ثم تختم بتلاوة القرآن الكريم كما بدأت بتلاوة القرآن الكريم ، فتأتي التلاوة منفصمة عما كان قبلها وعما كان بعدها .

وننسى أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، كما نزلت الكتب من قبله ، وكما طلب الكفار ، بل نزل منجما ، مرتبطا بالحياة ، تكون قصة أسرى بدر فينزل فيها قرآن ، وتكون مسألة الإفك فينزل فيها قرآن ، ينزل دائما مقترنا بالأحداث لنفهمه دائما مرتبطا بالحياة ولنربطة بها .

.(ذكريات-□-صفحة□□).

* * *

□□- يا أيهـــا الرجـــــــل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى   كما يصح به وأنت سقيـــم

لأبي الأسود الدؤلي ، من قصيدته التي يقول فيها :

حسد الفتـــى إذ لم ينالــــوا سعيه   فالقوم أعـــداء له وخصوم

(فكر ومباحث-صفحة□□).

* * *

وقعت لي في هذه المدرسة حوادث صغار ولكنها عميقة الآثار . منها أني كنت يوم أجتاز باحتها الواسعة ، خارجا من محاضرة قاصدا إلقاء أخرى ، وأنا أمضي دائما هذه الفسحة بين المحاضرات في الباحات ، لا أكاد ألج غرفة المدرسين إلا نادرا ، لأن الطلاب يمشون معي يسألونني ، وتتوالى الأسئلة والإجابات فتضيع هذه الفسحة بين المحاضرات .

أقول إني كنت يوما أجتاز الباحة فرأيت ركنا في مدرب رياضي ألماني ، والطلاب يتدربون على مبادئ الملاكمة ، فلما رآني وكنت شابا قوي الجسد ، متين التركيب ، وكان مقاييس جسمي ، العنق والصدر والبطن والأطراف لا تختلف عن المقاييس المثالية لأبطال كال الأجسام إلا□% فقط ، فقال لي ضاحكا : هل تدخل معهم فرقة الملاكمة ؟ قلت بلا تردد : نعم .

دخلت في فرقة الملاكمة فتعلمت من هذا المدرب الألماني وقفة الاستعداد وأنواع اللكمات : المستقيمة الأمامية ، والمنحنية الجانبية ، والقصير الصاعدة . والقاعدة عندهم أن يستعمل المبتدئ في بداية التدريب يده اليسرى وحدها ، حتى أن من المدربين من يربط اليمنى حتى لا يستعملها .

تدربت أولا على الكيس الثقيل ، ثم شرعت أنازل بعض الطلاب ، أضربهم ويضربونني ، فإذا دخلت الفصل عدت مدرسا وعادوا طلابا ، وأشهد أن طلاب العراق يعرفون الانضباط تماما .

ولبثت على ذلك شهورا ، حتى كان يوم أصابتني فيه ضربة من طالب تورمت منها عيني ، وظهر أثرها عليها ، فقلت للمدرب : إلى هنا وبس ـ وكلمة (بس) بمعنى (فقط) فصيحة معربة من القديم ـ ولكن سرعان ما طبقت ما تعلمته من دروس الملاكمة . ذلك أنني زجرت يوما طالبا مسيئا يبدو أنه من أسرة غنية وجيهة ، فحقد على أهله .

وكنت في صباح يوم مطير من أيام الشتاء ، أمر أمام وزارة الخارجية ذاهبا إلى المدرسة ، فاعترضني رجل طويل ممن يدعون في بغداد «أبو جاسم لر » أي من صنف الفتوات كما يقال في مصر ، أو القبضايات كما يقال في الشام ، وكلمة «لر» تركية هي علامة الجمع عندهم . ففتح معي بابا للشر ، وقال : لماذا شتمت فلانا (يعني من الطلاب؟) أما عرفت من هو ؟ وهل بلغ من قدرك أن تتطاول على ابن فلان ؟ .

فقلت له : حافظ على أدبك ، وإن كان لك كلام فراجع مدير المدرسة .

فقال قولا بذيئا ، وهددني ، أمسك بصدر ردائي حتى كاد يشقه ، ثم لوث ثوبي بحذائه المحمل بالوحل والطين فترك عليه أثرا ظاهرا .

وكان يمشي إلى يساري فقبضت يدي وتناولته بلكمة جانبية جاءت تحت صدغه لم يكن يتوقعها .

وتجمع الناس وحالوا بيني وبينه ، ولم أعد أستطيع المشي إلى المدرسة بهذا الثوب الملطخ بالوحل ، فأخذت عربة (عربانة كما يقولون) وذهبت فبدلت ثيابي ومررت بالأخ الكبير الذي كان مفزعنا في كل ملمة تلم بنا ، الأستاذ بهجة الأثري ، فخبرته .

فقال : لا تدير بال (أي لا تدر لها بالا) .

ووصلت المدرسة متأخرا فوجدت شيئا عجيبا ، الطلاب جميعا يستقبلونني ، يحفون بي ، يقولون : (خاطر الله سشنو هذا) مذا عملت ؟ كيف ضربته ؟ وأسئلة كثيرة من أمثال هذه كرت علي كرا .

قلت ويحكم ، خبروني أولا ، ما القصة ؟ فإذا القصة أن هذا الذي ضربته معدود في حيه من أبطال الرجال ، لا يقدر عليه أحد . أو هو يوهم من حوله بأنه لا يقدر عليه أحد ، فلما يئس من أن ينتقم مني بيده ، ذهب إلى المخفر وشكاني ، وكانت اللكمة قد أصابت أصول أسنانه فنزل منها الدم ، فهول ألأمر على الضابط وكبره ، حتى أحالوه إلى الطبيب الشرعي ، ويظهر، أنه استمال الطبيب فربط وجهه بالرباط الأبيض ورجعة إلى الضابط ، فبعثه الضابط مع شرطي إلى المدرسة يفتش عن المجرم الذي اعتدى على هذا البطل ... وكنت أنا ذلك المجرم .

فكانت دعاية لي بأنني قهرت من هو أقوى الرجال ، وأنني صرت بذلك من الأبطال ، وذهبوا فحدثوا بالقصة إخوانهم وأهليهم ، وزادوا في سردها ، على عادة الناس في المبالغات ، وملحوها وفلفلوها ووضعوا لها الحواشي والذيول ، فكانت النتيجة أنني صرت بطلا ، والحقيقة كما قال المثل : (مكره أخاك لا بطل)[1]

ولم تنته السنة المدرسة حتى جاء يوم خفت فيه حقيقة ، ذلك بأنني بعد أن أنهيت عملي في المدرسة وأكملت امتحاناتي كلفوني بمراقبة فرقة من الطلاب الأحرار ، الذي يدرسون الدراسة المسائية ، وكانت هذه الفرقة تؤدي امتحان الشهادة الثانوية ، وكان هؤلاء الطلاب غالبا من الجنود والعمال وكبار السن .

فوجدت جنديا ضخم الجثة ، بادي القوة ، متراكب الأعضاء ، غليظ العنق ينطق كل ما في جسمه بقوته وشدته . وكان قاعدا عند الشباك ، ينظر في الخارج متلهفا كأنه يرقب عونا ، فوضعت عيني عليه ، فخلا مقعد في وسط الغرفة ،فقلت له ﴿ قم فاقعد فيه﴾ .

فتردد ، وهم بأن يقول لا ، فما استطاع لأنه جندي خاضع للنظام العسكري ومعرض للعقوبة إن هو أعلن العصيان ، ووضعت عيني عليه ، وكانت عينه إلى الشباك ، فألقيت إليه رزمة أوراق فسبقته إليها فأخذتها فإذا فيها الأجوبة المطلوبة فأبقيتها معي ولم أدفعها إليه ، فضم شفتيه ، ورماني بنظرة وعيد يتطاير منها الشرر ، وهز رأسه كأنه يقول : سترى .

---

[1] - كذا حفظنا المثل والصواب (أخوك) .

وكان قد بقي لموعد سفرنا عشرة أيام ، فذهبت إلى المدير فرجوته أن يسمح لي بالسفر ، وأن يعفيني من هذه المراقبة التي لم تكن من عملي الأصلي .

فعجب وقال: لماذا ؟ فقصصت عليه القصة ، فقال وهل تخاف ؟ فقلت : نعم ، أخاف ؟. فضحك وقال : عجيب . قلت : له ، بل العجيب أن لا أخاف ، ألم يقتل السنة الماضية الأستاذ المصري الدكتور سيف ؟ ألم يكد يلحق به الأستاذ محمود عزمي لولا أنه أخرج مسدسه وهدد به ؟ ألم يعتدوا في الكرخ على الأستاذ فاضل الجمالي وهو يومئذ مدير المعارف ؟ .

إن الطلاب في الشام إن غضبوا لحقوا المدرس يسبونه أو يهتفون به الهتاف العامي الوسخ (بعرو) أو يرمونه بالحجارة وربما ضربوه ، أما القتل ...القتل ؟ فلا والله ، لا أعرض نفسي للقتل حتى تقول عني إنني شجاع .

فأبى أن يأذن لي بالسفر ، واعتذر بأنه لا يملك الإذن ، إنما تملكه وزارة المعارف ، وخرجت منزعجا .

وكنت أنام – كما عرفتم – في دارة العلوم الشرعية ، في المدرسة الملحقة بجامع أبي حنيفة في الأعظمية ، وكان عندنا رجل مسن اسمه حاجي نجم (الحاج نجم) كان بمثابة رئيس الفراشين . ولكنهم يوقرونه لسنه ويحترمونه ، وكان عاقلا .

فرآني مهموما فسألني : مالك ؟ قلت : لا شيء . فأصر علي أن أخبره ، وحلف علي بالله أن لا أكتمه شيئا . فخبرته بما كان فاستراح وقال : المسألة هينة ، أنا أذهب معك غدا .

فتعجبت ، وضحكت ، وقلت شبه ساخر : تذهب معي ؟ أشكرك . ولكن ماذا تصنع وأنت يا حاجي رجل عجوز ؟ هل تقاتل عني إن قاتلوني ؟ قال : لا تستصغر أحدا يا أستاذ ، وغدا إن شاء الله سترى . فاذهب الآن فتعش ونم مطمئنا .

وذهب معي صباحا ، فلما نزلنا من الحافلة في طرف بغداد مشيت ومشى ورائي بجانب الطريق فلما اقتربت من المدرسة وجدت الطالب الذي هددني ، ومعه ثلاثة من أشباهه ، لو صارعوا دبا قطبيا لصرعوه ، أو قاتلوا ثورا هائجا لقتلوه ، فأقبلوا علي من الجهات الثلاث بخطى بطيئة كخطى الجاموس الذي يتقدم للنطاح .

فوزنت قوتي بقوتهم ، فرأيت أني لن أقوى عليهم ، ولكني لن أكون ضحية سهلة ، وسأتناول واحدا منهم أو اثنين بلكمة قوية أو لكمتين قبل أن يصلوا إلي .

وتوقعت الشر وأيقنت أنه لا بد من وقوعه . وإذا بهم يقفون ، ثم ينظر بعضهم لإلى بعض ، ويستديرون راجعين ، فلم أفهم ماذا جرى ، وإذا الحاج نجم هذا الرجل العجوز لم يزد على أن مشى خطوتين إليهم ، وتنحنح يقول : احم ، كأنه يقول هلم ، ﴿نحن هنا﴾ فلما رأوه تطايروا كما يتطاير سرب من العصافير حط عليها الباشق .

ومشى معي إلى المدرسة . قلت أشكرك ، أشكرك ، ولكن خبرني أولا لماذا ذهبوا ؟ لماذا خافوا منك ؟ قال : هذا توفيق من الله . فأصررت عليه ، فلم يخبرني ، فتقصيت خبره بعد ذلك ممن يعرفه ، فعلمت أنه كان في شبابه مقدم حيه ، وكبير ﴿فتواته﴾ وبقي معه من أتباعه ومن إخوانه جماعة يفدونه بأرواحهم ، ويبذلون له دماءهم ، وكل واحد منهم بخمسة من هؤلاء الشباب الذين قطعوا علي الطريق ، وجاءوا يهددونني .

فلما رأيت ذلك رجوته أن ينزل معي كل يوم من أيام الامتحان من الأعظمية إلى بغداد فقبل ، وبقينا على ذلك حتى حان موعد السفر ، وجزيته خير ما قدرت من الجزاء ، وأسأل الله الآن أن يرحمه ، وأن يجزل له الجزاء .

ومما وقع لي تلك السنة أن الطلاب اليهود كانوا في الأقسام العلمية تسعة أعشار الطلاب وكانوا ينالون أعلى الدرجات في الامتحانات حتى في الأدب العربي الذي أدرسه ، كما أدرس الديانة ، وكان منهم الأول والثاني والثالث والرابع والخامس أي أن الخمسة الأوائل كانوا من اليهود .

فغاظ ذلك المدير ، وكان شابا يتفجر حماسه وإخلاصا ، ويمتلئ قلبه بغضا لليهود وكرها ، وقد نسيت اسمه مع الأسف – ولعل الأخ العراقي الذي علق فيما سبق على هذه الذكريات يرسل تعليقا جديدا من مقامه في المغرب ، يبين فيه اسم هذا الرجل .

كلمني المدير بشأن هؤلاء اليهود فقلت له : إني ليغيظني الذي يغيظك ، ولكن ماذا أعمل ؟ وأنا إنما أؤتمنت على تقدير الدرجات لما في ورقة الامتحان ، فلو أن بين الطلاب ابني أو أخي ما زدته درجة على ما يستحق . ولو كان بينهم قاتل أبي ما نقصته درجة ، وهذا ما أرادنا به ربنا حين قال لنا : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا). فإذا وجدت أنت سبيلا إلى ضمان مصلحة البلد ، بمعاملة اليهود بما يستحقونه ، بشرط أن لا أدع العدالة بين الطلاب ، كنت لك شاكرا . ففكر ، ثم قال ندمج مادتي الديانة والأدب معا ، ونعطيهما درجة واحدة ، قلت : ولكن بقي للامتحان أسبوعان ، وسيفاجأ اليهود بهذا القرار ويثورون عليها ، قال : هم أقل وأذل من أن يثوروا ، وهذا الدمج من الأمور الإدارية التي نيطت بي ، وأنا المسئول عنها ، فوافقته مكرها .

وصدر القرار ونفذ ، ولم يسمع صوت اعتراض لأن مادة الديانة كانت دراسة سورتين من القرآن الكريم وتفسيرهما ، والقرآن الكريم كتاب العربية وكتاب الإسلام ، فلا عجب أن يكون بين النصوص الأدبية المختارة شيء من القرآن الكريم ، بل ذلك هو الأصل وذلك هو المطلوب .

وجاء الامتحان ، وصححت الأوراق ، وظهرت النتائج ، فكان الأول والثاني والثالث والرابع والخامس أيضا من اليهود . فذهبت إليه قبل أن أعلن النتيجة ، وقلت ماذا ترى ؟ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماذا أعمل إذا كان الطلاب العرب المسلمون كسالى لا يعملون ، وكان هؤلاء الخبثاء هم العاملين

الجادين .

(ذكريات-□ - صفحة□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□)

* * *

وأول من سن سنة التشجيع في بلدنا هو العلامة المرحوم مربي الجيل الشيخ طاهر الجزائري ، الفيلسوف المؤرخ الجدلي ، الذي من آثاره المدارس الابتدائية النظامية في الشام ، والمكتبة الظاهرية ، والأستاذ محمد كرد علي بك ، وخالي الأستاذ محب الدين الخطيب ... ومما كتب في ذم التثبيط :

﴿... وقد عجبت من أولئك الذي يسعون في تثبيط الهمم ، في هذا الوقت الذي ينتبه فيه الغافل ...

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ولم ير أحد من المثبطين قديما أو حديثا أتى بأمر مهم ، فينبغي للجرائد الكبيرة أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير مها ، ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم ﴾ .

وكان الشيخ في حياته يشجع كل عامل ، ولا يثني أحدا عن غاية صالحة ، حتى لقد أخبرني أحد المقربين منه أنه قال له : إذا جاءك من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام ، فلا تقل له إن هذا غي ممكن . فتفل عزيمته ، وتكسر همته ، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته .

ثم إن التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءه حتى تظهر وتثمر ثمرها ، وتؤتي أكلها ، ورب ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ به عالما من أكابر العلماء ، أو أديبا من أعاظم الأدباء ! وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة ، إلى منصب الإفتاء وكرسي التدريس تحت القبة .

ومن هذا الباب قصة الشيخ على كزبر ، وقد كان خياطا في سوق المسكية على باب الجامع الأموي ، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس في الحلقة التي تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه ، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة ، حتى صار يقرأ بين يدي الشيخ في الحلقة ، ولبث على ذلك أمدا وهو لا يفارق دكانه و لا يدع عمله ، حتى صار مقدما في كافة العلوم .

فلما مات الشيخ حضر في الحلقة الوالي والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس جديد للمدرس الجديد ، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه . ففتشوا عليه فإذا هو في دكانه يخيط ، فجاءوا به ، فقرأ الدرس وشرحه شرحا أعجب

به الحاضرون وطربوا له . فعين مدرسا ولبث خمسة عشر عاما يدرس تحت قبة النسر ، وبقيت الخطبة في أحفاده إلى اليوم [٢]

(فكر ومباحث – صفحة [illegible]) .

❋ ❋ ❋

كنت معلم ابتدائي ، ولكني كنت متمردا أقوم بعملي كله ، أو بأكثر منه ، لأني كنت أحب عملي ، ولكن لا أشعر بالخضوع لمدير . ولما جاءت بدعة دفتر التحضير رفضتها ، ولم يستطع أحد أن يجبرني عليها لأنني إذا ضويقت فزعت إلى قلمي فجردته ، فقرعت به أركان وزارة المعارف . كانوا يعرفون هذا ويعرفه كل من أدرك تلك الأيام . وأنا لا أرى للشباب أن يقلدوني فيه ، ولكن أذكر ما كان ، وأنا أعلم أنه لا يستقيم أمر أمة إذا تمرد موظفوها على رؤسائهم ، أو تكبر عليهم رؤساؤهم . أنما يستقم أمرها إذا وقر صغيرها كبيرها ، ورحم كبيرها صغيرها ، واتبعوا في ذلك منهج الإسلام ، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

(ذكريات [illegible] صفحة [illegible])

❋ ❋ ❋

كان الأستاذ الذي يدرسه – أي الاقتصاد – كلما وجد في الأساتذة أو الطلاب من له قلم بليغ سأله أن يعود على عبارته بالتنقيح والتصحيح ، حتى صار كاتب أدب . ولم يكن يستر جهله بصمته بل يكشفه بلسانه ، فيضيع أولا ربع ساعة بقراءة التفقد يرفع النظارات عن عينيه حتى يقرأ الاسم ، ثم يعيدها حتى يبصر الطالب المسمى ، ثم يأمر أحد الطلاب فيقرأ الفصل من الكتاب فيضيع ذلك ثلث ساعة ، ثم يشرح ، وهالكم مثالا مما بقي في ذهني من شرحه .

يمر في الكتاب ذكر السلسلة العددية والهندسية ، فيقول : أتدرون ما السلسة العددية وما الهندسية ؟ فنقول (للتسلية بشرحه الهزء به) : لا ندري . فيفكر ويأخذ هيئة العالم الجاد ، ويقول العددية يا أولادي هي التي تنقص والهندسة هي التي تزيد .

---

[٢] - ومدرس القبة الرسمي اليوم شاب أوروبي الزي ، أوروبي اللسان ، أوروبي الزوجة لا يدخل المسجد مرة في العام ، ولكنه مدرس القبة !

وجاء مرة ذكر (ميزانتروب) وهو اسم مهزلة (كوميدية) لموليير ، فقال أتعرفون من هو ميزانتروب ؟ قلنا لا . قال هو عالم من علماء الاقتصاد !.

قلنا : أفادك الله كما أفدتنا .

(ذكريات-□ صفحة□□□،□□□)

* * *

ومن أصعب ما مر بي من تجارب في مجال الدروس الخصوصية ، تجربة كنت ناسيتها فما حدثتكم حديثها ، هي أنه كان في (بوابة الصالحية) مؤسسة أهلية لأستاذ لبناني اسمه (كما أذكر) سليمان سعد ، تدعى (كما أظن) الجامعة العربية ، سمع بأني أحسن العربية ، وأحتاج إلى المال ، فعرض علي أن ألقي عنده درسا خاصا ، لطالب واحد ، بأجر يعتبر كبيرا جدا ، فقبلت . وكانت المفأجاة الكبيرة يوم الدرس أن هذا الطالب جاء يحمل معه تاء التأنيث ، لم يكن طالبا ولكن طالبة شابة تتفجر شبابا ، وتفيض حسنا ، تنشر حولها ساحة من الفتنة مثل الساحة المغنطيسية ، لم أقدر أن أمكن نظري منها، لأصف وجهها وعينيها ، ولكن اللحظة التي لقيت عيناي فيها عينيها ، كفت لتقول لي ، وأقول لها . ولعلي بالغت في تصوري ، ولعل شبابي وكوني لم أجتمع قبلها بفتاة من غير أهلي ، وأن في نفسي من العواطف والرغبات ما يكون في نفوس أمثالي من الشبان ، لعل هذا هو الذي خيل إلي أني أرى فيها ما رأيت . الخلاصة أني أصبت منها بمثل ما يصيب من يمسه السلك مشحونا بتيار الكهرباء . ووقفت ألتقط أنفاسي ، وأرقب أن أفيق من دهشتي ، يتقاذفني ميل نفي إلى تدريس هذه الفتاة ، مع حاجتي إلى الأجر الكبير الذي عرض علي ، وخوفي من الله الذي أسأله أن يبعدني عن طريق الحرام ، ومزلات الأقدام . وترددت هل أقول : لا ، فأحرم نفسي متعة الجمال والمال . أم أقول : نعم ، فأسلك سبيل الضلال ؟ وتمنيت أن أقوى على الرفض فلم أستطعه ، ومنعني ديني أن أعلن القبول . وكانت هذا الخواطر تمر في نفسي مر (الفلم) الذي يكر مسرعا ، وهما يرقبان الجواب وهو يستحثني عليه ، يشجعني على القبول ، فقلت : ولكني لا أستطيع أن أدرس الآنسة وحدها . وقد نسيت أن أقول لكم إنها كانت سافرة ، يتهدل شعرها على كتفيها ، وتبدو ذراعاها ، قالا : وله[٣] . قلت :لأن ديني يحرم هذا علي . قالت : آتي بأخي معي يحضر الدرس . وليتها ما نطقت ، فقد كان صوتها فتنة أخرى كامنة فيها ، ومن الأصوات ما يفتن ولو نطقت صاحبته بالموعظة والتذكير ، وحضر أخوها ، ودرستها ، والدرس (تصوروا) موضوعة منهاج تاريخ الأدب البكالوريا ، الذي يجيء في أوله شعر بشار وأبي نواس ، ولو درس الشاب مثل هذه الفتاة أحاديث البخاري لوجد الشيطان مدخلا إلى مجلسهما ، فكيف والدرس في غزل بشار المكشوف المفضوح ، وشعر أبي نواس ؟ درستها أربع حصص أو خمسا ، الله أعلم كيف كنت فيها ، وإن لم

---

[٣] - هذه هاء السكت .

أدر (صدقوني) ما لون عينيها ، فأنا كنت الخجلان لا هي ، فكنت أتحاشى النظر إليها ، على رغبة نفسي فيما أتحاشاه . ثم رأيت أن استمرار الدرس مع غض البصر ، ولزوم الاحتشام ، ومع ما في النفس من الرغبة الطاغية ، نوع من عذاب الدنيا ، ونظري إليها ورفع الكلفة معها ، وتوثيق الصلة بها ، تعريض نفسي لم ا هو أشد منه عذاب الآخرة .فتركت لها ما بقي لي من (الأجرة) معها ، وهربت منه ، وقلبي عندها ولو وضعت في هذه الحالة قصة لكانت من أروع اقصص . وأنا قادر على كتابتها ، ولكني أكرم شيبتي أن أعود الآن إلى هذا الهراء ، وأرحم الشباب من القراء.

(ذكريات – [illegible] صفحة [illegible]، [illegible]، [illegible])

* * *

وأنا أنصح من أراد أن يتقن علما وكان عنده اطلاع على أسسه ومعرفة بمراجعة أن يدرسه فإنه لا يقوي طالب العلم ولا يعينه على إتقان هذا العلم ، مثل تدريسه .

(ذكريات – [illegible] صفحة [illegible]) .

* * *

قال سارطون (العلم مجموعة معارف محققة ومرتبة)

لما قال (معارف) أخرج المشاعر ، ولما قال (محققة) أبعد النظريات ، ولما قال (مرتبة) نفى الحقائق المفردة المنثورة التي تبدأ بها العلوم عادة قبل استكمال تكوينها .

أما التعليم ، فليس كل من علم شيئا استطاع أن يعلمه ، وما كل عالم يصير معلما ، فالتعليم أن تختار الأسلوب الذي توصل به هذه المعارف إلى أذهان المتعلمين . وذلك يقتضي معرفة بمدى إدراك الطالب ، لا تكلفه بما هو فوق إدراكه . وبمدى قبوله ما تلقيه عليه ، وإلا أغلق ذهنه دونك ، فقرعت بابا لا يفتح أبدا . وأن تزيح من طريقة العوائق التي تعيق فهمه عنك ، وينشغل بها عما تقول ، ومن هذه العوائق ، ما يكون فيك أنت أيها المدرس فلا ينبغي أن يكون في هيئتك ، ولا في لهجتك ، ولا في أسلوب معاملتك ، شيء غريب يقف فكره عنده ، فلا تستطيع أن توصل إليه ما عندك .

وأنا أحمد الله على أني كنت معلما ناجحا ، لا أقول ذلك عن نفسي وحدي ، بل يشهد به تلاميذي على مدى أحدى وستين سنة ، منذ بدأت التعليم .

علمت في المدارس الأولية في القرى الابتدائية في المدن ، والمتوسطة والثانوية ، وعلمت في الجامعات ، وفي أقسام الدراسات العليا فيها ، وعلمت شبانا ، وعلمت في مدارس البنات ، وإن كنت استغفر الله مما فعلت ولا أجيز

مثله ، وعلمت في مدارس المشائخ كما علمت في مدارس الشباب ، وكان من أسباب توفيقي ثلاث ، أوصي بها من أراد أن يكون معلما ناجحا :

أولها استيعاب المادة التي يدرسها ، والإحاطة بها ، والرجوع إلى كل كتاب يصل إليه من كتبها ، لا يقتصر على الكتاب المقرر . أما في الجامعة فلا يجوز أبدا أن يقرر للطلاب كتاب بعينه ، لا يرجعون إلا إليه ، ولا يأخذون إلا منه ، ومن يفعل ذلك من الأستاذة يكن معلم مدرسة ابتدائية ، لا أستاذ في جامعة .

الثاني : أن يسلك إلى إفهام الطلاب كل سبيل ، فإن ساق المسألة بعبارة لم يفهموها ، بدل العبارات حتى يصل إلى العبارة التي يستطيعون إن يفهموها ، وما دامت مسائل العلم في ذهنه ، وكلمات اللغة بين يدية ، يسهل ذلك عليه .

لما جاءتنا هذه الرياضيات الحديثة ، نقل بعض الأستاذة منا ما قاله فيها غيرنا ، فما فهمننا عنهم ، وما أحسب أنهم هم فهموا ما نقلوا ، فجاء أخي الدكتور عبد الغني ، فشرحها في كتابه ، الذي وضعه للطلاب في جامعة دمشق ، من أكثر من عشرين سنة ، فإذا هي مفهومة واضحة .

أحسب أني بعدت عن موضوع الذكريات ، وهذا دائي ، أذهب يمينا وشمالا ، ولكن آتيكم حيثما ذهبت بما ينفعكم أو يمتعكم .

أما الشرط الثالث فهو ، أن يكون طبيعيا فإن لم يعرف المسألة للطلاب إني لا أعرفها ، وإن اخطأ قال لهم إني أخطأت فيها .

(ذكريات – [illegible] – صفحة [illegible])

* * *

وأنا في العادة يحبني الطلاب لأني لا أقيدهم ، بل أقول لهم من شاء أن يخرج فليخرج ، ومن أراد أن يدخل فليدخل ، ومن لم يعجبه قولي فليفتح كتابا فليقرأ فيه ، ولو كان قصة من القصص أو مجلة من المجلات ، أو يكتب رسالة ، أو ينظم شعرا أو يسمع ما يشاء بشرط واحد هو أن لا يخرج صوتا ، ولامن فيه ، ولا من أي ثغرة أخرى فيه ، ومن كان له سؤال فليطرحه علي ، ولكن بعد أن أكمل الجملة وأصل إلى موضوع يصبح الوقف عليه ، لا أن يدخل بسؤاله بن الفعل والفاعل ، والمبتدأ والخبر ، فيقطع علي كلامي ، ويبعثر أفكاري .

ومن كان له اعتراض فأنا أستمع اعتراضه ، بشرط أن يكون عالما بما يقول ، أن يكون له عليه دليل ، وإن تبين أن الحق معه ، رجعت إلى قوله ، وشكرته عليه .

(ذكريات – [illegible] – صفحة [illegible])

* * *

وقد وقع لي أول قدومي مكة أن جاء ذكر حكم فقهي في مسألة من المسائل في مذهب الإمام أحمد ، فذكرت ما أعرفه ، فقال لي طالب من الطلاب : أن الحكم في المذهب على غير هذا ، فقلت له : درست الفقه في المدرسة المتوسطة ، ثم في الثانوية ، وأنت لم تتعلم بعد حكم هذه المسألة ، وأطلت لساني عليه ، وكان مهذبا فسكت ، فلما رحت إلى الدار ، رجعت إلى كتب الفقه ، فإذا الذي قاله هو الصواب ، أفتدرون ماذا صنعت ؟ جئت من الغد فقلت للطلاب : سمعتم بالأمس ما قلته لأخيكم هذا ، وقد تبين لي أني الحق معه ، وأنني أنا المخطئ ، لذلك أعتذر إليه أمامكم ، أعتذر إليه مرتين : مرة لأني خطأته وهو المصيب ، ومرة لأنني خالفت أخلاق العلماء ، فأطلت لساني عليه ، وظلمته بما أسأت به إليه .

وقد كان درسا عمليا أفاد الطلاب أكثر مما تفيدهم الدروس النظرية التي ألقيتها عليهم .

ومما وقع لي ، أنني كنت في أواخر الأربعينيات من هذا القرن الميلادي ، أدرس – مع اشتغالي بالقضاء – في ثانوية البنات الأولى في دمشق. فكلفت الطالبات في درس الإنشاء الذي يدعونه الآن ﴿ التعبير﴾ الكتابة في موضع يخترنه بأنفسهن ، لا أفرضه عليهن .

وكنت عندي بنت أحسبها شركسية الأصل ، صارت الآن كاتبة معروفة في سوريا اسمها نادية خوست ، فقالت : أتسمح أن أكتب عنك ؟ قلت نعم . فقالت بمكر ظاهر : ولو كتبت عنك ما لا يرضيك ؟ قلت : اكتبي ما شئت ، لكن التزمي الصدق وحدود الأدب .

فكتبت قطعه لا تزال عندي بخطها ، وقد مر عليها الآن أكثر من ثلث قرن ، تصفني فيها وصفا يضحك على كل من قرأه ، تسخر مني وتهزأ بزيي وشكلي وحركاتي ، ولكن القطعة مكتوبة كتابة جيدة . فماذا صنعت بها ؟ أعطيتها الدرجة العالية على أسلوبها ، لأنه كان في الحق أسلوبا أدبيا ممتازا ، وأحلتها على لجنة التأديب في المدرسة ، فاحتجت ، فقلت لها : إنك تحسنين الكتابة ، لذلك أعطيتك العلامة الكاملة ، كما يعطي الذي يصيب الهدف في مباراة الرماية ، لكن من يحسن الرماية لا يجوز له أن يرمي الأبرياء ، وأن يعتدي على الناس .

ولما أوقعوا عليها العقوبة عفوت عنها ، وما كان في نفسي شيء منها ، لأنني من تلك الأيام بل من أطول منها قد تعودت على النقد ، وألفت الهجاء .

(ذكريات – □ – صفحة □□□)

* * *

اشتغلت بالتعليم قبل أن أكمل التعليم ، فكنت طالبا في أواخر المدرسة الثانوية ، ومعلما لصغار التلاميذ في أوائل الابتدائية ، لبثت أعلم : علمت صغارا وكبارا ، وبنين وبنات ، ومشائخ وأفندية ، في المدارس العادية والمدارس الشرعية ، في الثانويات وفي الجامعات ، قبل أن ألي القضاء ، ومع ولايتي القضاء ، فما شكوت ولله الحمد يوما من اضطراب الفصل ، ولا من شغب الطلاب .

كنت أطل على الطلاب بوجهي فأبدأ الكلام ، فلا أدع ثغرة ينفذون بكلامهم منها ، وأمضي فيه حتى أخرج من الفصل وأنا أتكلم . وكنت أتتبع المناسبات ، فلا أمسك النكتة إن حضرت ، ولا يؤذيني ضحك الطلاب إن أضحكتهم ، ولا أدع مسألة ولو كانت خاصة بي ينفعهم أو يمتعهم سماعها ، إلا ذكرتها ، وإن مر اسم كتاب رصفت الكتاب ، أو اسم عالم عرفت بالعالم ، أحافظ على أصل الموضوع . ثم أعلق عليه ما يحتمله من الحواشي والتعليقات والفوائد ، لأني عرفت بالتجربة أن الموضوع الأصلي قد ينسى ، ولكن تبقى هذه الفوائد والتعليقات والحواشي ، وقد نسيت الآن ، بعد إكمال الدراسة بستين سنة ، نسيت أكثر المنهج الذي كان مقررا ، ولكني لأزال أحفظ كلمات قالهن المدرس في بعض المناسبات . ويبقى حبهم إياي ما بقي الامتحان بعيدا ، فإذا ، حل الامتحان فهي نهاية الحب ، وكان شيخنا الشيخ عبد القادر المبارك ، رحمه الله يقول : إني أعطي ربع راتب طول عمري لمن يقوم عني بالامتحان .

(ذكريات – □ – صفحة □□□)

* * *

ما كنت ولا كان كثير من إخواني نعد أنفسنا معلمين فقط . وما كنا نرانا مسئولين أمام وزارة المعارف وحدها ، نطبق مناهجها ونطيع أوامرها ، بل كنا نعد الجواب للسؤال يوم العرض على الله : السؤال عن تربية الأولاد على ما يرضيه ، على الشريعة التي بعث بها خاتم رسله ، عن تخريج أمة جدية تؤمن بالله إيمانا خاليا من الشرك كله ، الظاهر منه والخفي . تخاف الله ولا تخاف في الحق أحدا إلا الله ، تستهين بعذاب الدنيا مهم اشتد ، للخلاص من عذاب الله في الآخرة وهو أشد . كنا نلقنهم العقيدة سالمة الشوائب ، ونعودهم العبادات بعيدة عن الرياء ،

والسلوك الذي يحببهم إلى الناس ولا يكرههم إلى الله .فإن جاء أمر فيه ترك واجب أو فعل حرام ، فلا مبالاة حينئذ بحب الناس ولا خوف من كرههم ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

كنا نعيد عليهم كل يوم أن هذه البلاد لنا ، وأن الفرنسيين واغلون علينا عداون على حقنا ، ومن يعاونهم منا أعدى منهم علينا ، وإن كان في الظاهر منا .

لا نلقي عليهم في ذلك كله محاضرات فلسفية ، ولا خطبا بليغة أدبية ، بل نكلمهم باللسان الذي يفهمونه ، لا نجمعهم لذلك بل نتبع سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله : كلمة هنا وكلمة هناك ، وكل كلمة في موضعها ، وكل كلمة عند مناسبتها ، يحفظها من يحفظها وينساها من ينساها ، ولكن لا يضيع أثرها أبدا . من سمعه حملها إلى أهله فبلغهم وبلغ أصحابه ، مغزاها ورب مبلغ أوعى من سامع ، أو يحفظها في ذاكرته حتى يكبر فيدركم معناها ، كما تحفظ الصحراء بذور الكلأ حتى يأتي المطر فتخضر منه الصحراء .

وما خرجوا جميعا متعبدين صالحين ، ولا وطنيين مخلصين ، و صاروا أئمة بالخير جمعوا أسبابه واستكملوا مزاياه ، بل اقتربوا منه وأحبوه . . (ذكريات صفحة). هل أضرب مثلا واقعا أم أخاف أن أؤذي به أحدا ؟ على أن الذي يؤذيه الحق أولى به هو أن يرجع إليه لا أن نترك نحن كلمة الحق حفاظا عليه . على أنني لا أسمي أحدا ولا أعين بلدا . كان لي حفيد تكرموا عليه فأدخلوه مدرسة مشهورة ، لكن اتفق أن بدلوا معلميها وجاءوا بغيرهم فكان معلمه شابا مبتدئا لم يحذق صنعته ، ولم تصقل الأيام خشونته ، ولم تهذب حواشيه ، فمضت السنة ولم يتعلم تهجئة الكلمات . وحسبت ذلك ضعفا منه فجاءت نتيجة الامتحان فإذا هو يعطى درجة جيد جدا . وارتقى إلى الصف الثاني فالثالث فالربع وهو لم يتجاوز الحد الذي وقف عنه على عهد المعلم الأول ، وحفيد آخر في مدرسة أخرى ابتلى بمعلم قاسي القلب ، فارغ الرأس ، يستر فراغ رأسه وضعفه في مهنته ، بشدته وقسوته ، فهو يدخل القلم بين أصابع الولد مخالفا بينها ثم يضربه عليها ضرب مجرم مكانه السجن ، لا معلم محله منبر التدريس .

أنني أقول الآن : يا أسفاه على أيامي الأولى في التعلم الابتدائي التي ضقت فيها لما كنت أعيشها ، ثم عرفت قدر عملي فيها لما فارقتها . كان أسلوب التعليم على أيام الفرنسيين أن يتسلم المعلم فصلا كاملا بكل دروسه . وكنت آخذ إحدى شعبتي السنة الثالثة ، والشعبة الثانية يتولاها الصديق الأديب الشاعر سليم الزر كل ي مد الله في عمره ، فنشأ من هؤلاء التلاميذ الصغار من نبغ وبقي حبلي متصلا بحبله ، وشملي مجموعا إلى شمله إلى الآن ، لأن أعمق الآثار في حياة التلميذ أثر معلم الابتدائي . معلم الابتدائي يصادف قلوبا خالية يمكن أن تملأ بالخير أو بالشر

ن بالإيمان أو بالكفر ، بالفضيلة أو بالرذيلة ، وأنا أرجو أن أكون قد نثرت في قلوب تلاميذي بذور الفضيلة والخير والإيمان .

إن ممن علمت في الابتدائي أناسا بلغوا المراتب ، صار منهم كما قلت من قبل : الوزراء، وصار منهم في الوزارات وكلاء ، وصاروا أساتذة جامعات ، وصار منهم من هو أجل مني قدرا ، وأسير في إنسٍ ذكرا ، ولا يزالون إذا لقوني يذكرونني بالخير ، ولولا المنغصات في التعليم الابتدائي ، ولولا رعونة بعض المديرين وسخافة عقولهم ، واهتمامهم بالصغائر ، ولولا انتفاخ بعض المفتشين ، ولولا أن من الأنظمة والقوانين ما وضعه ناس غرباء عن التعليم لكان التعليم الابتدائي نعمة من النعم .

(ذكريات صفحة [illegible])

* * *

هذا مع العلم أننا نعيش في الدنيا لا نعيش في الجنة ، وأن الدنيا ما صفت للأحد حتى تصفو لنا .

خلقت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضـــد طباعهـــــا متطلب في الماء جـــذوة نار

أكبر ذنب في التربية والتعليم نرتكبه ، والله سائل مرتكبه عنه ، ومجازيه به ، هو أن نسلم الولد أو نسلم البنت ، وقلوبهما صفحات بيض ، إلى معلم لا يخشى الله ، أو معلمة لا تتقيه ، فينقشا عليها سطور الشكوك والعصيان ، بدلا من كلمات الاستقامة والإيمان ، والمعلم مهما بلغ من سعة العلم ، وكبر الشهادات وبلاغة اللسان ، لا يكون فيه خير إن لم يكن له (مع ذلك) المعرفة بالشرع ، والإخلاص لله .

لقد عملت سنين قبل أن آتي هذه القرية ، ولكني كنت أعلم في مدارس أمرها إلى غيري ، لم أكن أملك إدارتها ، ولم يكن لي الحكم فيها ، وهذه أول مرة أتسلم فيها مدرسة فيها أكثر من مئة من الأولاد يأخذون منى ما أعطيهم ، ويسمعون ما أقوله لهم ، ويسيرون من حيث سيرتهم ، فأحببت أن أكون لهم كما كان أفاضل أساتذتي لي ولرفاقي ، لا أجعل عملي كله أن آخذ ما في كتبهم المقررة فأحشو به أدمغتهم ، وأسجله على ذاكراتهم حتى يؤدوه يوم الامتحان كما تسلموه ساعة الدرس ، ثم يمحى منها ، فلا يكاد يبقى منه أثر فيها ، هذا الذي تريده وزارة المعارف ، وتكافئني عليه ، وتقنع مني به ، ولكن الله يريد مني أن أراقبه فيهم ، وأن أدلهم عليه وأرشدهم إلى

ما يرضيه منهم ، وأجعل منهم أعضاء في جسم الأمة سليمة من العلل ، قائمة بالعمل ، لا أعضاء معتلة ولا مشلولة ولا خاملة . حاولت أن أعودهم على أداء العبادات ، على إقامة الصلاة ، على الصدق في القول ، على الجرأة في الحق ، أغرس في قلوبهم الخوف من الله وحده ، وأنوع منها الخوف من عبيده ، لا سيما الرؤساء ، على أن يحترموهم وأن ، وأن يطيعوهم فيما ليس فيه معصية لخالقهم ، لا أريد منهم أن يجانبوا طريق الأدب معهم ، فالأدب مطلوب ، ولكن التذلل هو المرفوض ، فأنا لا أريد أن يذلوا أمامهم . الذل أمام الله في الصلاة ، وأمام الضعيف لمساعدته ابتغاء ثواب الله ، وأمام صاحب الحق ليصل إلى حقه ، هذا كله عز . ولكن الذي أبيته لنفسي وعودتهم على إبائه هو الذل أمام الجبار الظالم خوفا من جبروته ، وأمام الغني أملا بغناه ، وأمام ذي المنصب من اجل منصبه . ووقع أمر كان امتحانا عمليا لي أمامهم ، ذلك أني لما وصلت القرية لاستلام عملي زرت (مدير الناحية) ، وهو كما قلت من قبل المرجع الإداري لمن فيها ، وكان شابا مهذبا متخرجا في معهد (أي كلية) الحقوق ، وقد نسيت اسمه ، فذهبوا به وجاءوا برجل من آل المؤيد ، وهم فرع من أسرة العظم ، التي كنت أعرف بعض رجالها : حقي بك الذي حضرنا في امتحان الشهادة الابتدائية ، وكان حاكم دولة) (!) دمشق وأعجب بأجوبتي (لأن الامتحان كان شفهيا) ، ومنحني جائزة ثمينة لأني كنت الأول على وزار ة العدل : دواة لها قيمة بقيت عندي إلى أن كبرت . وعرفت سامي بك مدير وزارة العدل ، أي وكليها ، وكان صديقا لوالدي ، وكان من جماعة خالي محب الدين الخطيب ، لزم معه الشيخ طاهرا الجزائري ، ودخل معه الجمعية العربية لما أنشأها ، وكان يحبني ويودني . وأعرف رجلا من فقراء آل العظم عالما معلما مؤلفا فاضلا وهو جميل بك . وكان من رفاقنا ناظم المؤيد وهو في الذؤابة منهم نسبا ، ورمزي العظم ، وأعرف الأخ الأكبر لهذا المدير الجديد وهو صفوح بك ، ولكني لم أعرفه هو ، ولم ألقه ، وأنا أزور المرجع الإداري مرة عند حضوري لأن ذلك عرف قانوني ، ثم أعكف على عملي.

(ذكريات صفحة □□□/□□□)

* * *

وكنت في المدرسة يوما فإذا الأولاد يقولون : المدير جاء . قلت : أهلا وسهلا .ومشيت لاستقباله لأنه ضيف على المدرسة .

وأني لعبد الضيف ما دام ثاويا وما في إلا تلك من صفة العبد ورحبت به ، ولكنه صعر خده وشمخ بأنفه ، وقال : أنت المعلم ؟ وتوجه إلى التلاميذ يكلمهم . وكان يلبس لباس الصيادين وهو حذاء طويل إلى الركبة ،

وقد غرس فيه درة (كرباج صغير) ، ورداء (جاكيته) من الجلد ، وقد برم شاربيه الكبيرين ، فحكمت عليه بأنه مغرور متكبر (على الفاضي) ، وثارت الكرامة في نفسي ، وأنا حين أحس أن كرامتي مست لا أعود أرى الذي هو أمامي . وقلت له بلهجة أخف وأيبس من لهجته : نعم أنا المعلم ، وأنت من تكون ؟ فاستشار إلى العسكري من خلفه إشارة من يخاف منه علي . ثم قال : يأستاذ حضرته المدير . فقال للعسكري : أولا أنت ما سألك أحد فاسكت ، ثم إنه لو كان المدير لكان مؤديا عارفا بمواضعات الناس المؤدبين ، ويستأذن قبل أن يدخل ، ويسلم بعد أن يستأذن .. فصرخ : ماذا تقول يا أفندي ، هل تعرف من تخاطب ؟ قلت : لا لأنك غير معروف ، ولم يعرفني أحد ببك ، أما أنا فإنني معروف ، وإن جهلتني فاسأل عني أخاك صفوح بك . ورفع صوته ، فكان صوتي أرفع ، واحتدم الجدل ، فصحت بالطلاب : انتباه ، فسكتوا ، ثم قلت لهم : صف فاصطفوا ، فقلت لهم : انصراف ، خذوا كتبكم واذهبوا إلى بيوتكم ، فانصرفوا ! وأدرت له ظهري ومشيت إلى غرفتي ، وتركته وحده ، يشتم ويهدد ويتوعد ، ثم خرج وهو يرتجف من الغضب ، وأسرعت إلى دمشق ، فزرت بديع بك كبير أسرة آل العظم وخبره بما كان لم أخرم منه حرفا ، ولم أبدل شيئا مما قال وما قلت ، وما كان منه وكان مني . ويظهر أن بديع بك قد استدعاه وكلمه ، فسكت ولم يذكر المسألة بعد ذلك ، وأبلغني بعض المتصلين به أنه لامه وقال له : أتريد أن تعمل ثورة جديدة في الغوطة تكون أنت المسئول عنها ؟ ألا تعلم أن له لسانا يهز المنابر ويحرك البلد؟ ألا تعرف أنه من زعماء الطلاب ؟ ألا تقرأ ما يكتب ؟ وما زال به حتى اعتذر له عما صنع ، بدل أن يكلفني أنا الاعتذار ، ثم صار صديقي .

وكنت خلال ساعات الدوام أؤدي عملي الرسمي على أكمل وجه ، بل إني أعمل أكثر من العمل الرسمي ، وأسد مسد ثلاثة معلمين ، وكنت قريب عهد بقراءة كتاب كان له لما صدر في فرنسا صدى عظيم ، لأنه جاء بشيء جديد في التربية الاستقلالية ، هو كتاب (التربية الحديث) لأدمون ديمولان، فحاولت أن أطبق بعضا فيه .

خلاصة ما جاء به أقولها من ذهني وقد قرأت الكتاب من نصف قرن ، خلاصته أن يكلف التلميذ أو المجموعة من التلاميذ ، بعمل يعملونه ، ويترك لهم وضع الخطة لإنفاذه ، ولا يراقبهم أثناء العمل وإنما يسألهم عن نتائج العمل. فبدأت بنظافة المدرسة ، وهي من عمل آذن أو (الفراش) ، ولكن المدرسة ليس فيها آذن ولا ففراش ، فاقتديت بمن هو أفضل من بألف درج ، ومن لا أبلغ في العلم ولا في الدين ولا في العبقرية عشر معشار ما عنده منها : عمر بن الخطاب لما أراد أن ينظف بيت المقدس مما ألفاه اليهود عملت مثله :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح

فطلبت مكنسة وأخذت أ:نس فناء المدرسة ، فأسرع التلاميذ يأخذونها من يدي ، ويقولون : ماذا تفعل ياأستاذ ؟ قلت : أفعل ما فعله ثان رجل في الإسلام ، من كان يحكم ثلاث عشرة حكومة من حكومات اليوم ، أنظف المدرسة ، إن المدرسة دارنا فإن لم يكن عندنا خادم أفنقعد على الأوساخ ؟ كنت أخاف إن أمرتهم بذلك أمرا أن يهربوا منه فلما رغبتهم فيه ترغيبا ، وسبقتهم إليه ، تزاحموا عليه ، فقلت : رتبوا أتم أمركم وتقاسموا العمل بينكم ، حتى تكون مدرستكم نظيفة مثل دوركم . ثم عملنا على غرس الأغراس ، وزرع الأشجار ، في فناء المدرسة ، ولم يحتاجوا إلى من يعلمهم ، فقد كانوا أولاد أبرع الفلاحين ، فما شهر حتى تحول الفناء من أرض خراب إلى جنينة تعد تحفة في الجنائن ، قام بذلك كله التلاميذ متعاونين . وكنت أبقى في المدينة النهار كله ، لأن وقت الدراسة كان قبل الظهر وبعده ، يذهب التلاميذ ساعة للغداء والصلاة ويرجعون وكنت أحمل غذائي.
(ذكريات [illegible] – صفحة [illegible])

* * *

ونصل إلى (جسر) الغيضة)) حيث يجري بردى ممتلئا جياشا ، وعنده خمائل ممتدة ، وأشجار مزدحمة أشباه الغابات ، كان لها لا سيما في منطقة (الزور) دور كبير أيام الثورة السورية ، وكانت قريتنا وما جاورها من القرى ، تزرع القنب ، وهو قصب لطيف إذا نزعت قشرته عاد مثل الخشب الناعم ، ولكنه ضعيف ينكسر لأدنى ضغط ، مجوف يلعب به الأولاد .. يسحبون به الماء بأفواههم من النهر و، ويحمل على الدواب بعد أن يصف صفا في أبالات كبير ، القنب الطويل في أطرافها ، والمكسر في وسطها ، ليؤخذ إلى أفران الشام ، توقد به النار ، لأنه سريع الاشتعال حتى لتضرب به في ذلك المثال ، كما يضرب المثل بضعفه حتى ليقال للإنسان الضعيف : كأن عظامه من القنب . أما قشره فتصنع منه الحبال ، فترى الحبلين بين البساتين ، قد نصبوا أعمدة مدوا عليها الحبال (لبرمها) . أما الاستعمال الأعلى للقنب أو لبعض أنواعه فهو أن يستخرج منه المورفين (المخدر) أي (الحشيش) ، والغريب أن أهل الغوطة والبقاع الأخرى من الشام ، وبعض الأماكن في تركيا ، يزرعه أهلها ولا يتناولونه ، لكن يبيعونه بالخفاء لمن يتعاطاه ، ويربحون منه المال الكثير ، يهربون به لأن الحكومة تمنع . ثم جعلت أبتعد بالتلاميذ ، فزرنا مدرس (زملكا) وكان فيها صديقنا بشير ياسين (وعمه الشيخ محمود ياسين هو خال شكري فيصل) ، وكنا نتبارى فيحسن تعليم التلاميذ وتنظيمهم ، فكنا كفرسي رهان ، حتى جاء يوما بما عجزت عنه ، هو انه ألبس تلاميذه كلهم الطرابيش ، مثل تلاميذ المدينة ، فغلبني . ولكني ثأرت منه في حادث طريف ولكنه ليس بظريف ،

وأنا هنا أسجل مالي وما علي . وتعلمت ركوبها ، ولكني لم أتقنه ، فكنت أقف على حجر أو كرسي ، فأمتطي الدراجة وأمشي بها متعثرا خائفا . ومررت به يوما وأنا راجع (لأن قرية زملكا على طريقي) فدعوته ليركب ورائي على الدراجة ، فيستريح من انتظار السيارة ، ويوفر أجرتها . قال : لا ، يا عم ، أخاف أن ترميني . قالت : يا عيب الشوم (وهي كلمة تقال في الشام بمعنى يا للعار) أتخاف وأن ورائي ؟ قال : اتركني الله يرضى علهي ،قلبي غير مطمئن ، قلت : أركب ولا تخف ، فركب مكرها ، وسرنا والطريق خال ، فاعترضنا نهر صغير عليه جسر (أي كوبري، والكوبري بالتركية الجسر) فقال : أنزل وأمشي ، قلت :لا أبقى راكبا . وكان الجسر خشبتين طويلتين ، عليهما خشبات صغار معترضة ، فوقها بعض فروع الشجر ، فلما بلغت وسط الجسر اضطربت يداي ، وملت به ، فسقط في النهر وسقطت فوقه ، وسقطت الدراجة معنا ، ولم يكن النهر عميقا ، ولكن كان نجسا ، وكان مجراه طين منتنا ، أما الدراجة فالتوى عمودها الفقري ، وانكسر مقودها أي ذراعاها ، وأما نحن فخرجنا على شر حال ، وتركته يلقى في سبي (منولوجا) طويلا لو كنت في غير هذه الحالة لأخذت قلما وورقا وكتبت الشتائم المبتكرة التي نطق بها ولا أدري من أين اقتبسها فهي أوسخ من كل ما قال شعراء الهجاء ، بل أوسخ من النهر الذي سقطنا فيه ، ولكن الحق هو أني كنت مستحقا لها . واستوقفنا سيارة مرت بنا ، فلما رأى سائقها ثيابنا ساقها وتركنا ، وسيارة أخرى وثالثة ورابعة فلم يقف لنا أحد من سائقيها ، فانتظرنا حتى حل الليل وأسدل ستاره ، فمشينا مشيا حتى بلغنا دمشق ، فدخلناها من غير الشارع العام ، ولما وصلت الدار وكانت فيها عمتي (بعد وفاة أمي) أبت على دخول الدار إلا إن نزعت هذه الثياب عني ، ثم مشيت رأسا إلى المطبع لأغتسل في زاويته ، ولم يكن في دارنا ولا في أكثر دور الشام حمام ، ولا تعجبوا فلقد ذهبت سنة ▯▯▯▯▯ إلى (بون) والمدن المجاور لها وزرت كثير من منازل الطلاب العرب فيها فوجدت أكثرها من البيوت القديمة التي ليس فيها حمام .

وكان التعليم الابتدائي إلزاميا ، وكان عندنا قانون أظنه صدر أيام العثمانيين ، يلزم كل ولد في سنة الدراسة الابتدائية بالذهاب إلى المدرسة ، فإذا امتنع أجبره الدرك (شرطة الأقضية والقرى) على الذهاب ، وغرموا وليه مالا ووقفوه في المخفر ، ولم أحتج إلى هذا القانون فقد تدفق الأولاد على المدرسة حتى لم يبق فيها مكان ، ضاقت هي ولكني لم أضق أنا بهم ، ولم أتبرم بكثرتهم بل كنت أزداد بهم فرحا ، كلما ازدادوا عددا ، وكان أنبه التلاميذ (رضا) ابن أبي رضا الذي ذكرته ، فجعلته على صغره عريفا ، وجعلت من متقدمي الطلاب معلمين أو معاونين لمتأخريهم ، فكبروا لذلك قبل أوان الكبر ، وكنت أراقبهم من بعيد فلا أجد بحمد الله إلا التعاو ن الصادق ، حتى صارت هذه المدرسة إماما لمدارس القرى ، ونفخت فيهم روح الحماسة للعمل ، وإخلاصه لله لا للناس ن وكانوا على صغرهم يدركون هذا كله ، إن لم تدركه عقولهم وعنه قلوبهم واشتملت عليه ضمائرهم . وكان قبلي في هذه

المدرسة معلم أصله من درعا اسمه الشيخ (فلان) الحلبي ، وكان محركا (موتورا) لايقف ومبعث نشاط لا ينضب ، لم أره ولكن رأيت آثار عمله وكانت آثارا طيبة . ولم يكمل تعليمه من تلاميذ هذه المرة إلا الولد الأصغر لأبي رضا السقباني ، يعمل الآن مستشارا قانونيا في إحدى الإدارات في الرياض ، اسمه (أحمد عبده) يذكر تلك الأيام وإن مضى عليها الآن نصف قرن كامل .

ذكريات – [illegible] صفحة [illegible]

* * *

وكان معنا مدرس فلسطيني يدرس اللغة الإنجليزية ولكنه خفيف الروح ، صاحب نكتة ، له غرائب . منها أنه يركب الحافلة المزدحمة فيخلي الناس المقعد كله له ، فيقعد وحده مكان اثنين ، والناس مزدحمون على المقاعد أو هم وقوف يمنعهم أن يقعدوا معه . ذلك أنه يجعل جسده كله يختلج فجأة ، وتصطك أسنان ، ويخرج من حلقة أصواتا مبهمة عجيبة وتهتز أطرافه ، ويجيء ذلك كله في لحظة واحدة ، يعود بعدها ساكنا ، كما كان قبلها ساكنا ، فيحسبه الناس مجنونا أو مصروعا فيبتعدون عنه ، وبذلك يخلو له المكان .

وكان عندنا مدرس إنجليزي أذكر أن اسمه ماكدونالد ، وإذا كان في الإنكليز برودة كما يقال ، فهذا أبرد الإنكليز . ما عرفت ولا سمعت بأبرد منه ، لا يكلم أحدا ، ولا يسلم على أحد ، ولا يرد السلام على أحد .

وكانت تأتي بين الدروس أحيانا ساعات ، ليس للمدرس فيها عمل فينتظر الساعة التي بعدها ليلقي درسه ، فاتفق أن هذا المدرس الفلسطيني اجتمع في ساعة فراغ بماكدونالد ، ولم يكن في غرفة المدرسين ، من المدرسين الأربعين غيرهما ، فقال له صاحبنا : (غود مورنينغ) فمارد ، فسكت قليلا ، ثم كلمة فما أجاب . فأخذ صاحبنا جريدة فجعل يقرؤها ، أو يتظاهر بقراءتها ، ثم جاء بحركته تلك ، ففزع الإنكليزي وابتعد عنه وقعد يسترق النظر إليه ، فرآه قد عاد ساكنا كما كان ، فتعجب منه ، ثم جاء بها المرة الثانية فلم يعد اللإنكليزي يستطيع البقاء ، وخرج من الغرفة فذهب إلى المدير .

وكان المدير رجلا عربيا بغداديا طيبا سليم الفطرة ، لا يعرف من الإنكليزية شيئا ، وكانت غرفته مستطيلة يصعد إليها بدرجات قصار ، ولها شرفة واسعة تطل على ساعة المدرسة ، فلما دخل عليه يكلمه بالإنكليزية ما

فهم عنه ، فلما أطال المقال ، وجعل يشير بيديه استدعى الفراش ، وقال له اذهب فأتي بمدرس إنكليزي ليفهم ما يقوله هذا . فذهب فلم يجد إلا صاحبنا المدرس الفلسطيني فجاء به ، فلما رآه الإنكليزي داخلا من الباب أراد الهروب فلم يجد مهربا إلا من الشباك ، فوثب منه إلى باحت المدرسة ، وعجب المدير ، وسأل ما شأنه ؟ فقال له المدرس الفلسطيني : إنه مجنون ، فأيقن المدير بجنونه فكتب يطلب نقله ، وتدخلت السفارة البريطانية في بغداد ، وكانت مشكلة . .

(ذكريات –□ – صفحة□□□، □□□)

❊ ❊ ❊

صفات المعلم الناجح :

أما الطلاب فأشهد أنهم من أحسن من رأيت من الطلاب : حرصا على الفهم ، ورغبة في العلم ، وانضباطا وتقديرا للمعلم على أن يحسوا منه بأنه قوي في مادته ، عادل في معاملته ، طبيعي في تصرفاته ، وهذه هي الصفات الثلاث للمدرس الناج ح ، ثم إن سئل عن شيء يعرفه أجاب ، وإن لم يكن يعرفه قال : لا أدري ، فعلمهم بذلك أخلاق العلماء ، كما يعلمهم علم العلماء .

وأن يكون جريئا شجاعا ، وأن يكون كريما لا يحرص على المال .

والشجاعة والكرم هما ركنا النباهة والسيادة عند العرب . وهما مدار قصائد المدح عند الشعراء ، من قديم الأزمان . .

(ذكريات –□ – صفحة□□□)

❊ ❊ ❊

لما بلغنا ذروة الجبل العالي ، المطل على الربوة ومتنزهاتها ومقاهيها ، المقابل لـ(المنشار) و (قبة السيار) ، وملنا لنهبط إلى (المزة) اعترضتنا حظيرة من الجنود السنغاليين على رأسهم عريف فرنسي ، فمنعونا ، فأردنا أن نرجع من حيث جئنا ، فأبوا ذلك علينا . قلت لهم : فماذا نصنع ؟ فأشاروا إلى الربوة ، أي أن نهبط من وجه الجبل ، كان ذلك يشق على المحترفين من متسلقي الجبال ، فما بالكم بأولاد ، منزلهم الغوطة ، ما عرفوا الجبال ولا ألفوا صعودها وهبوطها ، والجبل من هنا كأنه جدار قائم ، عليه حجارة صغار ، إذا وضع النازل رجله عليها تدحرجت من تحت رجله ، فكأنما مشت الأرض أو خسفت به فهوى معها .

عدنا إليهم نحاول إقناعهم ، فلا أقنعهم العقل ، ولا حركهم العاطفة ، ولا نفع معهم كلام ، كأننا نكلم صخرة ، أو نخاطب دابة ، وكلما ألححنا عليم حركوا زناد البندقية ووجهوها إلينا .

امتحان مر عليه نصف قرن ، ولم أنس ما قاسيت منه ، وكان معي إخوتي الثلاثة ، فكنت أضع أخي ناجي مرة أمامهم ، وأكون أنا من خلفهم ، ومرة أكون أنا قدام وهو من وراء ، وكنت أدعو الله أسأله (إذا كان مقدرا على أحد منا الموت) أن أموت أنا أو أحد إخوتي وينجو أبناء الناس ، هل يفرط أحد بنفسه أو بأخيه ، أو يهون عليه فقده ؟ ولكني اخترت أن أقع أنا أو أخي ، ولا أوقع أحدنا من هؤلاء ، لأنهم أمانة في عنقي ، فمن يخلصني من آبائهم وقد عرضتهم أنا إلى الهلاك ؟ .

وتردد الأولاد ، وخافوا ، وكنت أشد منهم خوفا ، وأكثر ترددا ، ولكني تجلدت ، وشددت صوتي وأمرتهم أمرا عسكريا أن ينزلوا ، بعد أن علمتهم كيف يكون النزول ، وهددت من يتأخر أو يجبن بالعقوبة ، وأثرت الحماسة في نفوسهم .

وكنت متعودا على الجبال ، عرفتها وألفتها ، وطال عهدي بها ن فهونت النزول عليهم ، فنزلوا والحجارة تتدحرج من تحت أقدامهم ، وكل من كان في المقاهي ، أو كن قاعدا على السفح ، أو كان يتنزه بين الأنهار التي تجري في الجبل ، كلهم يصرخ بي : ما في نزلة من هنا . ارجع . ارجع . مافي نزلة . خطر .

يرون الخطر وأنا أراه معهم ، ولكنهم لم يروا ، ولم يعلموا ، ما الذي جعلني أهجم على الخطر ، وأعرض أولاد الناس إليه .

وكانت ساعة أطول من دهر ، لا يعلم إلا الله ما مر علي فيها ، وأن أتوجه إليه أدعوه ضارعا مضطرا ، وهو الذي يجيب دعوة المضطر ، كنت أرى الموت في كل خطوة نخطوها بأقدامنا ، وفي كل حجر ينحدر من تحت أرجلنا ، أراه في الوادي الذي يبدو لي كقرارة بئر ما إليها وصول ، أرى لمعان مياه الأنهار كأنها سيوف مشرعة ، أو سكاكين محددة ، أمام قلبي الذي كاد من شدة الخفقان يفارق الضلوع ، وكانت صورة الولد الذي سقط قديما في النهر ، لا تفارق مخيلتي ، فأسال الله ألا تعاد ، وأدعوه أن يمر اليوم بسلام .

وما كنت تراني إلا صاعدا ونازلا ، وكذلك يصنع أخواني ناجي وعبد الغني : يتعثر تلميذ فنسرع إليه ، أو يعلق فنمضي لأنجاده ، والأصوا ت لا تنقطع من تحتنا ، من المقاهي ومن شطوط الأنهار ، لم يبق للناس عمل إلا مراقبتنا والنداء علينا . .

وما صدقت أني بلغت السفح ، حتى تشهدت ، وألقيت بنفسي على الأرض ، أستريح قليلا لأشرح للناس الذي تكوموا علينا ، لماذا نزلنا من هنا .

فقد ذكرتني بهذه الجولة برحلة إلى حلبون .

(ذكريات [illegible] – صفحة [illegible]، [illegible]، [illegible])

* * *

ومما رأيت أن مدير آخر (الشيخ محمود العقاد تلميذ أبي وأستاذي) أراد أن يدرب الطلاب الكبار في مدرسته على تعليم الأطفال الصغار ، ومر عليهم يرى تدريسهم فأبصر من أحدهم خطأ فضربه أمام التلاميذ الذي يعلمهم ، ولقد كان من أثر هذه التربية وأثر الكتاب الذي قضيت فيه قبلها يوما واحدا أو بعض يوم ، أن أورثني كرها دائما للمدرسة ، وبغضا لا يزول لها من نفسي ، حتى إنني لأفرح يوم العطلة ، كما أفرح إن غاب المدرس أو شغل عن الدرس ، وبقي ذلك بعدما صرت معلما ابتدائيا ، ثم صرت مدرسا ثانويا ، ثم صرت أستاذا جامعيا ، بل إنني لأفرح الآن إذا هتف بي (أي كلمني بالهاتف) مخرج براجمي في الرائي أو الإذاعة ، يخبرني أن يوم التسجيل قد أجل ، أو خبرت أن المحاضرة التي حددت ساعة إلقائها قد ألغيت أو أن المقالة التي كلفت بها ، قد صرف النظر عنها ، صرت أوثر الكسل وأكره العمل ، وأؤخر إن لم أجد منه مهربا إلى اللحظات الأخيرة ، فلا أكتب المقالة ولا أعد الحديث ، ولا أهيئ المحاضرة إلا حين لا يبقى بيني وبين إلقائها إلا وقت إعدادها .

وأني لأعجب أن أجد الآن فيما أقرأ من المقالات ، أو أستمع في الندوات من يحن إلى عهد الفلق ، ويبكي عليه ويتمنى أن يعود أولاده إليه ، وأعجب منهم الذين يدعون إلى إرجاع الكتاتيب ، ويثنون عليها ويحمدون أيامها ، ولقد كان في حينا في دمشق ، حي العقيبة أمام جامع التوبة ، مدرسة أثرية هي المدرسة الأجرية (التي

صارت الآن مكتبة عامة) كان فيها كتاب أخذني جدة إليه وأنا ابن خمس سنين وكان الكتاب مغلق الباب مسدود النوافذ ، ولم يكن فيه مقاعد ، وكان الأولاد يجلسون على الأرض في صفوف تتراص حينا ، وتتفسخ حينا تبعا (لحالة السوق) وكثرة الأولاد ، إلا أن المعروف عن الكتاب أنه كجهنم لا يراد آتيا ، وأنا الشيخ مستعد أبدا لحشوه بالتلاميذ ، وواثق أنه لن ينفجر من قلة الهواء ، وكثرة التنفس ، وانعدام النوافذ ، وكان الصبيان يخلعون أحذيتهم ، وأنا أقول أحذيتهم على المجاز وإلا فهي القباقيب غالبا ، يخلعونها عند الباب ، ثم يدخلون فيقبلون يد الشيخ ، ويضعونها أمامهم بجانب اللوح والصبرة (أي كتاب الهجاء) والغذاء ، ويجلسون جلسة واحدة إلى المساء ، لايقومون إلا للشراب من البركة القريبة من الكتاب ذات الماء الملوث يدخلون فيها رؤوسه م ، ويعبون عبا كالجمال ، وإلا لقضاء الحاجة ، ويسمونها (الدستور) فإذا رفع الولد أصبعه وقال (دستور) ، عرف الشيخ أنه خارج لقضاء حاجته في مراحيض المسجد ، أمام الكتاب .

أما الطعام فكانوا يأكلونه وهو قعود في أماكنهم ، عندما يسمعون المؤذن ينادي بالظهر ، أو يلتهمون اللقمة أثر اللقم في غير وقت الظهر من غير أن يراهم الأستاذ ، أعني الشيخ .

وللحديث بقية عن المدارس والكتاتيب وعن المصايف والاصطياف ، وعن الاستفادة من العطلة في تغذية العقل بالمطالعة وتقوية الجسد بالرياضة .. بقايا ستأتي إن شاء الله .

(ذكريات □ – صفحة □□□□،□□□)

❋ ❋ ❋

ومن طريف الذكريات ، أني كنت أدرس مرة في ثانوية البنات في دمشق ، ولم أكن مصيبا في قبول التدريس فيها ، وأستغفر الله الآن من دخولي إليها ، لأنه لا يجوز في شرع الله ، ولا في طبع عباده من العرب ، أن يتولى رجل تدريس البنات البالغات ، وأكثرهن سافرات كاشفات ، فكيف بأن تدرس بنت فتيانا ؟؟ وكنت أشرح قصيدة الخطيئة ، فمر ﴿بغيض﴾ فسخرت طالبة من اسمه واستقبحته . فسألتها : ماسمك ؟ قالت مها ، قلت : أفلا أنكرت اسمك ، والمهاة هي البقرة ؟

فوضعت رأسها بين كفيها ، وانكبت على المقعد تبكي ، وأطالت البكاء .

قلت : ماالذي يبكيك ؟ قالت : أبكي لأنك قلت أني بقرة ، قلت : أنها البقرة الوحشية ، ثم إن أهلك وهم أعرف بك وأحنى عليك ، هم الذين سموك بهذا الاسم ، فازدادت بكاء ، قلت : لك أن تبكي ما شئت ، ولكن لا تخرجي صوتا يعطل علينا درسنا .

(ذكريات – صفحة)

* * *

وكنت يوما في الرياض أدير مفتاح الراد ، فسمعت إذاعة غريبة ليست من جدة ، ولا من مصر ، لم أكن أسمع في الرياض يومئذ غيرهما ، إلا إذاعة بغداد ، أسمعها أحيانا ، فوجدت هذه الإذاعة الغريبة .

(ذكريات – صفحة)

* * *

ثالثاً : فوائد تتعلق بالمنهج .

اللغة الإنجليزية (مثلا) فيها حروف تكتب ولا تقرأ ، وحروف تقرأ وهي غير مكتوبة ، وحروف تقرأ مرة شيئا ، ومرة شيئا آخر ، ولابد لكل طالب لهذه اللغة من أن يتعلم كيف يكتب كل كلمة فيها ثم يتعلم كيف تلفظ ، وهي بعد لغة سماعية ، لا يطرد فيها قياس ، ولا يعرف لها قاعدة ، ومخارج حروفها عيبه ، وألسنة أهلها ملتوية ، ثم إنها لغة ليس لها نسب ثابت ، ولا أصل معروف ، ولا يفهم إنجليزي اليوم كلام الإنجليز في عصر المعري والشريف الرضي ، فضلا عن عصر امرئ القيس وزهير . وألفاظها لإمامة من الطرق ، من كل لغة كلمة ، ففيها كلمات ألمانية وكلمات فرنسية وكلمات من العربية .

وهي على هذا الضعف ، وعلى هذا العجز ، وهذه المعايب كلها ، قد سمت بها همم أهلها ، حتى فرضوها على ربع أهل الأرض ، وأنطقوهم بها .

ولغتنا العربية ، وهي أكمل لغات البشر ، وأجودها مخارج ، وأضبطها قواعد ، ذات القياس المطرد ، والأوزان المعروفة ، قد أضاعها أهلوها وأهملوها ، لم يكفهم أن قعدوا عن نشرها وتعليمها الناس كما فعل أجدادهم من قبل ، بل هم قد تنكروا لها ، وأعرضوا عنها ، وجهلها حتى كثير ممن يدرسها ، وجهلها حتى كثير ممن يدعون الأدب فيها وأين اليوم من أدباء العربية كلهم من يروي من الشعر مثل رواية الشنقيطي ؟ أو يعرف من علوم العربية مثل معرفة حمزة فتح الله ؟ أو يتذوقها ويكتب فيها مثل كتابة الرافعي ؟ أو يحفظ من نوادر نصوصها مثل

حفظ النشاشيبي ؟ وإذا ولى إذا (بعد عمر طويل) هؤلاء النفر من أدباء مصر وكتابها ، فمن يبقى المرجع في اللغة وعلومها ؟ .

العربية في خطر يا أيها العرب ، العربية في خطر يا من يعتز بالقومية ، إن اللغة هي ركن القومية الركين ولقد عملت في بناء حضارتنا عوامل مختلفات منذ عهد العباسين ، ودخلت فيها (في الفكر وفي العادات) ، عناصر أجنبية يونانية وفارسية وهندية ، ولكن بقي الدين إسلاميا خالصا ، وبقيت اللغة عربية خالصة ، فملكنا نحن هذا كله ولم يملكنا وكان من أبناء هذه الشعوب غير العربية ، علماء في ديننا ، وأئمة في لغتنا وأدبيا : شهراء وكتاب ، في لساننا ، ولم يخل عصر من العصور ، أئمة في اللغة وحفظة لها من عصور الانحطاط التي توالت علينا منذ القر آن الثامن الهجري إلى أن أشرق فجر النهضة الجديدة .

وفي هذه العصور ألفت أكبر المعاجم اللغوية ، (لسان العرب) و (شرح القاموس) وهذه أول مر ه تتعرض فيها العربية إلى هذا الخطر ، وهو أن تفقد الإمام اللغوي . ومن ظن أني أتشاءم أو أبالغ ، فإني أعود فأسأله أن يدلني على إمام في العربية ضليع فيها ، يخلف هؤلاء النفر الباقين من شيوخ الأدب في مصر ؟ .

لقد كدنا نجهل لغتنا ومن شك فليمتحن نفسه ، فليفتح لسان العرب وليقرأ فيه عشرة أبيات متتابعة من شواهده ، من أي صفحة شاء ، فإن فهمها كلها ، واستطاع أن يشرحها ، أو فهم نصفها أو ربعها واستطاع أن يشرحه ، فأنا المخطئ ومن يرد عليٌ هو المصيب .

أنا لا أطلب أن يكون فينا من يؤلف مثل الكامل وأدب الكاتب والأمالي ، بل أطلب أن يكون فينا من يقرؤها بلا لحن ، ويفهم ما فيها بلا شرح .

أن اللغة العربية معجزة الذهن البشري ، وأعجوبة التاريخ في عصوره كلها ، وإذا كان التاريخ يذكر ولادة كل لغة ، ويعرف مراحل نموها ، ومدارج اكتمالها ، فإن العربية أقدم قدما من التاريخ نفسه فلا يعرفها إلا كاملة النمو ، بالغة النضج . فمتى ولدت ؟ ومتى كانت طفولتها ؟ ومتى تدرجت في طريق الكمال حتى وصلت إلينا كاملة مكملة لم تحتج إلى تبديل أو تعديل ؟ بل لقد أكدت بما زاد عنها من ألفاظها أكثر لغات الأرض . ففي كل لغة منها أُثر .

هل في الدنيا لغة يستطيع أهلها اليوم أن يقرؤوا شعرها الذي قيل من أربعة عشر قرنا فيفهموه ويلذوه كأنه اليوم ؟ هل في الدنيا لغة يستطيع أستاذ الطب في الجامعة وأستاذ الطبيعة ، وأستاذ الفلسفة ، أن يجد في ألفاظها التي كانت مستعملة قبل أربعة عشر قرنا ما يفي بحاجته اليوم ، في القرن العشرين ؟ أفليس حراما أن نضيع هذه اللغة الأصيلة العظيمة ، ويفرض الإنجليز لغتهم التي لا أصل لها على ربع العالم ؟ أليس حراما أن نهملها حتى يجهلها منا المتعلمون وأهل اللسن والبيان ويلحنوا فيها ؟ أليس حراما أن يكون فينا من الخوارج على لغتنا من

ينصر العامية المسيخة أو يكتب بها ؟ أليس حراما أن تسير على ألسنتنا مئات الألفاظ الأعجمية الفرنسية والإنجليزية ننطق بها تظرفا أو تحذلقا وعندنا عشرات الألفاظ التي ترادفها وتقوخم مقامها ؟ فيا أيها العرب لغتكم . لغتكم يا أيها العرب ، تعلموها وحافظوا عليها وانشروها .

إن أمامكم اليوم فرصة لنشر العربية إذا =أضعتموها لم تلقوا مثلها خلال ألف سنة . فرصة تستطيعون أن تكسبوا بها ثمانين مليونا آخر يتكلمون العربية ويتخذونها لسانهم .

تقولون : أين هذه الفرصة ؟

في باكستان سادة ، في باكستان والهند .

إن نصف الباكستانيين في باكستان الغربية ، ونصفهم في باكستان الشرقية ، واللغة هنا الأوردية ، وهناك البنغالية . والأوردية أكثر ألفاظها عربية وفارسية وتكتب بالحروف العربية ، والبنغالية أكثر ألفاظها هندية وتكتب بالحروف السنسكريتية ، ولا يمكن اتخاذ واحدة منهما لغة رسمية . ولا بد من اتخاذ إحدى اللغتين لغة رسمية : العربية ا، الإنجليزية .

ولد كنت هناك عند وضع الدستور . وكنت أرى هذا الجدال على اختيار إحدى اللغتين وكنت أخشى أن تضيع الفرصة ، ولقد كتبت إلى الحكومات العربية وإلى الهيئات العربية ، وأخجل أن أقول إني لم أجد مجيبا .

وقد أجلت المسألة ولم تضع الفرصة . فهل نعود فنستفيد منها ؟ .

إن إقبال الباكستانيين على العربية لا يمكن أن يصوره لساني ، لأنهم يرون فيها لغة القرآن ، ولأنهم يتعلمونها ديانة وتقربا إلى الله ؟ ولقد درت على المدارس التي افتتحتها المفوضية السورية في كراتشي فرأيت فيها العجب ، عشرون مدرسة يا سادة ، في كل واحدة نحو مئة طالب ، منهم الصبي ابن العشر ، والشيخ ابن السبعين ، إي والله وهم يتعلمون العربية نطقا وقراءة ، والعربية الفصحى خلال شهور . خلال شهور معدودات وكل هذا يقوم به أربعة مدرسين أوفدتهم وزارة المعارف ، وقد افتتح قبل سفري من كراتشي ، معهد لتخريج معلمين ومعلمات للعربية وقد خطبت في حفلة افتتاحه أنا والصديق الجليل عبد الوهاب عزام سفير مصر (رحمه الله) وقلت لهم : إننا نعلمكم العربية واليوم ، ولكنا سنعود فنتعلمها منكم ، كما تعلمناها قبل من الزمخشري ومن سيبويه ومن الصاغاني الهندي ، ومن الزبيدي الهندي شارح القاموس .

أربعة مدرسين قاموا بهذا كله ، فلو أن كل حكومة عربية أوفدت مئة مدرس ، لكسبت العربية ثمانين مليونا ناطقا بها . وليس القوم هناك بالغرباء عن العربية ، فهم يقرؤون القرآن الكريم ، وثلث لغتهم كلمات عربية ، وهم يقرؤون الكتابة العربية ، لأنهم يكتبون في باكستان العربية بها ، وفي الهند علماء في العربية أجلاء ، في معهد ديوبند ، وفي لكنو ، والعلماء المسلمون في كل مكان يعرفون العربية .

وهذا سر من أسرار القرآن الكريم .

فما لنا نضيع هذه الفرص كلها ؟ .

ما لنا نهمل لغتنا وهي أكمل اللغات وأشرفها ، وهي أوسعها ، وهي أبلغها .

فيا أيها العرب ..

عودوا إلى العربية فتعلموها وحافظوا عليها ، وانشروها ، اخلصوا لها ، فإن من العار علينا أن تكون لنا هذه اللغة ونضيعها ، من العار علينا أن يصل هذا الكنز إلى أيدينا وأن نفرط فيه .

أستأذن الأستاذ (الزيات) فأستعير منه هذا العنوان . فأكتب كلمة في هذا الموضوع الكبير ، الذي نبه إليه الأستاذ بمقالته القيمة المنشورة في (الرسالة) الثالثة عشرة :

قال الأستاذ : (ليس من شك في أن دراسة النحو على هذا الشكل تفيد في بحث اللهجات في اللغة ، ودرس القراءات في القرآن ن الكريم ، ولكن نحن اليوم ، وقبل اليوم ، إنما نستعمل لغة واحدة ، ونلهج في الفصيحة واحدة ، فلماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التي تحفظ هذه اللغة ، وتقوم تلك اللغة ، وندع ذلك لظم والرم لمؤرخي الأدب وفقهاء اللغة وطلاب القديم ، على ألا يطبقوه على الحاضر ، ولا يستعملوه في النقد ، وإنما يلحقونه بتلك اللغات البائدة التي خلق لها ، وتأثر بها ، فيكون هو وهي في ذمة التاريخ وفي خدمة التاريخ ؟ ﴾ .

ولقد صدق الأستاذ وبر ، وأصبح النحو علما عقيما ، يدرسه الرجل ويشتغل به سنين طويلة ثم لا يخرج منه إلى شيء من إقامة اللسان والفهم عن العرب . وإنني لأعرف جماعة من الشيوخ ، قرؤوا النحو بضعة عشر عاما ، ووقفوا على مذاهبه وأقواله ، وعرفوا غوامضه وخفاياه ، وأولوا فيه وعللوا ، وأثبتوا فيه ودللوا ، وناقشوا فيه وجادلوا ، وذهبوا في التأويل والتعليل كل مذهب ، ثم لا يفهم أحدهم كلمة من كلام العرب ، ولا يقيم لسانه في صفحة يقرؤها ، أو خطبة يلقيها ، أو قصة يرويها ؟. ولم يقتصر هذا العجز على طائفة من الشيوخ المعاصرين ومن قبلهم من العلماء المتأخرين ، بل لقد وقع فيه جلة النحويين وأئمتهم منذ العهد الأول.

(فكر ومباحث : صفحة)

* * *

وتلك سنة المستعمرين في كل مكان وفي كل زمان ، قانون (فرق تسد) ومن سننهم إضعاف الدين في النفوس ، واللغة على الألسنة ، (وإذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح قيدها ما دامت محتفظة بدينها ولغتها) . وسلكوا إلى هذه الغاية طريقا خفيا لا يكاد يحس إلا القليل من الناس بخطر سلوكه ، هو أنهم عمدوا إلى علوم الدين ، التوحيد والتجويد والتفسير ، والحديث ومصطلحة والفقه وأصوله ، هذه العلوم الكثير التي كنا ندرسها ، ونؤدي

الامتحان فيها فلا ننجح إلا إن عرفنا كل واحد منها جعلوها من مكرهم درسا واحدا في سموه درس الدين ، ثم أوغلوا في الشر فلم يعطوه إلا ساعة في الأسبوع ، ثم زادوا في الشر إيغالا فلم يدخلوا هذا الدرس في الامتحانات العامة ، وأكثر التلاميذ لا يهمهم إلا النجاح في الامتحان ونيل الشهادة ، فصار الدين مهملا ، وصاروا يختارون لتدريس علومه أضعف المعلمين ، ثم ألحقوه بعلوم العربية وجعلوه جزءا منها ، فأضعفوا علوم الدين .

وصنعوا في العربية قريبا من هذا الصنيع ، فحملوا النحو والصرف والإملاء ولإنشاء مادة واحدة ، وكان قانون الشهادة الابتدائية أن من أخذ نصف درجة من عشرة درجات وكان مجموع درجاته في الدروس (أي المواد كلها) فوق النصف – أي أكثر من خمسين في المائة – نجح في الامتحان ، ما لم يكن قد أخذ صفرا في إحدى المواد ، ولا تنسوا أنهم جعلوا علوم الدين كلها مادة واحدة وعلوم العربية كلها مادة واحدة ، فكان ينجح الجاهل بالدين وبالعربية .

وكنا كلما طالبنا بتبديل هذا القانون أو تعديله ، أمهلونا إلى أن ينعقد (مجلس المعارف الكبير) ، ولم يكن ينعقد إلا نادرا .

(ذكريات [illegible] صفحة [illegible])

* * *

أما الثمرات السامة لهذه الزرعة فقد ظهرت بواكير ها في العلم ، وستظهر قريبا في الأخلاق .

لقد كان من ثمراتها في العلم أن انصرف الطلاب والطالبات عن التدريس. ومتى يدرسون ؟ وفي النهار الغناء والرقص ، وفي الليل هذا الرائي الذي جاءنا ولم نكن نعرفه من قبل (التلفزيون) .

فهبط مستوى المناهج ، فما كنا نقرؤه في السنة الأولى المتوسطة لما كنا تلاميذ في الثانوية في أوائل العشرينيات من هذا القرن ، صار يقرأ الآن في أواخر الدراسة الثانوية . وجاء خبراء التعليم بأمر ما سمعنا به من قبل ، هو أن التلميذ الابتدائي لا يسقط في صفحة ، بل ينجح من صف إلى صف ، أي من سنة إلى سنة ، نجاحا تلقائيا ، قرأ أم لم يقرأ . واخترعوا في العربية نحوا جديدا غير النحو الذي كنا نقرؤه ، فنشأ الطلاب على جهل بالعربية . أما الدين فقد نزلوا به أولا فسموه تربية دينية ، وجعلوه كالتربية البدنية ، والتربية الفنية . ولم يعطوه إلا ساعة في الأسبوع ، ولما ناضلنا وطالبنا منوا علينا بساعة أخرى .

(ذكريات [illegible] صفحة [illegible]).

* * *

أما اللغة الفرنسية ، فقد بدؤوا تعليمها من أول المدرسة الابتدائية ، تمشي مع اللغة العربية خطوة خطوة ، وما في الدنيا أمة حية حرة واعية تعلم أبناءها لغة أجنبية ، قبل أن يتقنوا لغتهم القومية .

كتاب (قواعد اللغة العربية لحنفي ناصف وإخوانه) هذا الكتاب لو وعاه أستاذ العربية ، ووعاه الأديب واقتصر عليه لكفاه فكم الذي يعرفونه من الطلاب الآن ؟ .

(ذكريات- [illegible] صفحة [illegible])

❋ ❋ ❋

الاختراعات ليست خيرا كلها ، وليست نفعا للبشرية مطلقا ، والعلم الذي اخترع السيارة المصباح الكهربائي ، هو الذي اخترع الديناميت والغاز الخانق ، وهذه البلايا الزرق فشره بخيره والنتيجة صفر .

ودع هذا ... ولنأخذ الاختراعات النافعة : لنأخذ المواصلات مثلا ... لاشك أن العلم سهلها وهونها ، فقرب البعيد ، وأراح المسافر ، ووفر عليه صحته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟ .

أحيلك في الجواب على (شبنكر) لترى أن البشرية قد خسرت من جرائها أكثر من الذي ربحته : كان المسافر من بغداد إلى القاهرة ، أو الحاج الأذى بيت الله ، ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة في الطريق ، ويحمل آلاما ، وتعرض له مخاوف ، ولكنه يحس بمئات من العواطف ، وتنطبع في نفسه ألوف من الصور ، ويتغلغل في أعماق الحياة ، ثم يعود إلى بلده ، فيلبث طول حياته يروي حديثها ، فتكون له مادة لا تفني ، ويأخذ منها دروسا لا تنسى ، أما الآن فليس يحتاج المسافر (إن كان غنيا) إلا إلى الصعود على درجة الطيارة ، والنزول منها حيث شاء بعد ساعات قد قطعها جالسا يدخن دخينة ، أو ينظر في صحيفة ، فهو قد ربح الوقت ، ولكنه خسر الشهور ، فما نفعتنا المواصلات إلا في شيء واحد ، هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدوا ، ونحن مغمضون عيوننا ... لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق ! .

ولنأخذ الطب ... وليس من شك أن الطب قد ارتقى وتقدم ، وتغلب على كثير من الأمراض ، ولكن ذلك لا يعد مزية لأنه هو الذي جاء بهذه الأمراض ، جاءت بها الحضارة ، فإذا سرق اللص مئة إنسان ، ثم رد علي تسعين منهم بعض أموالهم أيعد محسنا كريما ، أم لا يزال مطالبا بالمال المسروق من العشرة ؟ .

انظر في أي مجتمع بشري لم تتغلغل فيه الحضارة ، ولم يمتد إلى أعماقه العلم ، وانظر في صحة أهله وصحة المجتمعات الراقية ؟ هل الأمراض أكثر انتشارا في فيافي نجد ، أم في قصور باريز ؟ أو ليس في باريز أمراض لا أثر لها في البادية ؟ فليس إذن من فضل للعلم في أنه داوى بعض الأمراض ، بل هو مسئول عن نشرها كلها ؟

وتعال يا سيدي ننظر نظرة شاملة ، هل البشر اليوم (في عصر العلم) أسعد أم في العصور الماضية ؟ أنا لا أشك في أن سعادتهم في العصور الماضية ، عصور الجهالة (كما يقولون) كانت أكبر وأعمق ، ذلك لأن السعادة ليست في المال ولا القصور ولا الترف ولا الثقافة ، ولكن السعادة نتيجة التفاضل بين ما يطلبه الإنسان ، ويصل إليه ، فإذا كنت أطلب عشرة دنانير وليس عندي إلا تسعة فأنا أحتاج إلى واحد ، فسعادتي ينقصها واحد ، أما روكفلر فسعادته ينقصها مليون ، لأن عنده تسعة وتسعين مليونا وهو يطلب مائة . فأنا بدنانيري التسعة أسعد من روكفلر ... وكذلك الإنسان . لم تكن مطالبه كثيرة في الماضي فكان سعيدا لأنه يستطيع أن يصل إليها ، أو إلى أكثرها . أما ! مطالبه اليوم فهي كثيرة جدا لا يستطيع أن يصل إلى بعضها فهو غير سعيد .

(فكر ومباحث-صفحة[illegible])

* * *

ونحن نترك هؤلاء ،ونشغل التلاميذ في درس التوحيد ، بالرد على المعتزلة والجهمية وأمثالهم .نحارب الأموات ، بسلاح الأمس : بالسيف والرمح ، ونترك الأعداء الأحياء الذي يقاتلوننا بالصواريخ والقنابل الذرية ...

الشرط الأول ، حين نتعلم القانون الطبيعي ، أو نعلمه تلاميذنا أو نستفيد منه تطبيقا : أن نذكر من وضعه ، وهو الله رب العلمين ، فتكون هذه العلوم ، دالة على الله ، مثبتة للإيمان به .

الثاني : أن نذكر حين ندرس هذه القوانين مقرونة بأسماء العلماء ، قانون أرخميدس (أرشميد) ، قانون لافوازي ، قانون نيوتن وأمثالها ، أن هؤلاء العلماء ، ما أحدثوا هذه القوانين ، ولكن كشفوها ، فنسبت إليهم ، وعرفت بهم . إنهم ما أوجدوا مفقودين ، ولكن أظهروا موجودا .

الثالث : أن نفرق بين القانون الثابت الذي وضعه الله وجعله سنة من سننه في الكون ، ما له تبديل ولا تحويل ، وبين النظرية ، وهي افتراض يفترشه العالم ، مرحلة بين المشاهدة والتجربة ، فإن ثبت بالتجربة أنها صحيحة كانت هي القانون ، وإن سقطت وأبطلت ، وراح يبحث عن (نظرية أخرى) .

الرابع : أن نعلم أن الإسلام لا يمكن أن يكون فيه نص قطعي ، ينافي ويناقض الثابت في العلم الثبوت القطعي ، لأن الذي أنزل القرآن هو الله ، والذي وضع القانون الطبيعي هو الله ، ويستحيل أن يخلق الله خلقا ، ثم ينزل قرآنا بنفيه . .

(فصول إسلامية –صفحة[illegible]-[illegible])

❋ ❋ ❋

وجئت بطريقة للإفهام – أي النحو- اقتبست أصلها من النحو الفرنسي (الكر أمير) . مثالها : (قرأ زيد) ، أسال من الذي (أو ما الذي إذا كان الفاعل غير عاقل) قرأ؟ الجواب : زيد ، فيكون زيد هو الفاعل . (قرأ زيد الكتاب) ، قرأ ماذا ؟ الكتاب، فالكتاب مفعول به . (قرأ زيد الكتاب مساء) متى قرا؟ فمساء ظرف زمان ، وهو منصوب . (قرأ زيد الكتاب قائما) .. ماذا كانت حالته وهو يقرأ ؟ قائما ، فكلمة (قائما) حال . (قرأ زيد الكتاب احتراما للأستاذ) . لأجل ماذا قرأ ؟ احترارما للأستاذ ، فكلمة (احتراما) مفعول لأجله ، أي أن فعل القراءة مفعول للأجل الاحترام . ومشيت على هذا الطريق فانتقلت من الأسماء الصريحة إلى الضمائر إلى أسماء الشرك الخ . ثم يكلف الطالب تلخيص الرواية التي قرأها ، ثم ننظر في أسلوبها بالمقدار التي يصلح لأمثال هؤلاء الطلاب . ندرس أغراض الكاتب ، فنصنفها ونظر تسلسل أجزائها ، الطرق العلمية على الأدب ، أو نعطي الطلاب بحوثا نضطرهم إلى حفظها وأتباعها ، وتعلمها أن نربي في الطالب الملكة الأدبية ، وندله على طريق البحث ، ثم ندع له اختيار النتيجة .

أما المعنى الثاني للأدب :

وهو أقرب إلى الموضوع التعليمي ، فهو أنه (مجموع الآثار البيانية الجميلة في لغة ن اللغات) فالأدب العربي مجموع ما في اللغة العربية من نثر جميل ، وشعر جيد ، وأمثال وخطب ورسائل ، والأدب الفرنسي ، مجموع ما في اللغة الفرنسية من قصص وأقاصيص ومذكرات وقصائد ورسائل وخطاب .

ودرس هذه الآثار هو المسمى هنا بدرس (النصوص) وسنعود إلى الكلام فيه .

نحن إلى هنا في أدب شخصي (Subject if) يستند على تصور الجمال (الإنشاء) وعلى تذوق هذه الثور (النصوص) ولكن عندنا أدبا آخر ، أقرب إلى الموضوعية (Objectif) وأمس بالعلم وأدنى إلى قوانينه ، وهو (النقد) أو المراد بالنقد وزن الآثار الأدبية وتقويمها ، فالأديب يحس ويشعر ويعبر عن حسه وشهوره ، فعمله إنشائي بحت ، أما الناقد فيزن هذه الآثار بميزانه ، ويطبقها على مقاييسه ، ويفاضل بينها وبين المثل الأعلى الذي يتصوره ، والنقد قسمان ، نقد صوري (C. de forme) للألفاظ وصحتها والجمل ومتانتها ، والأسلوب وقوته ،

ونقد فكري أو معنوي (C.de rond) للفكر ة وتسلسلها ، والصورة وجمالها ، والنتيجة التعليمية لهذا التقسيم ، وهو أن الطالب يحتاج إلى النحو والصرف والبلاغة وما إليها من علوم الأدب لينتقد نقدا صوريا شكليا ، ويحتاج إلى تربية الذوق الفني الفكري المعنوي ، على أن لاينسى المدرس أو واضع المنهج أن هذه العلوم وسيلة إلى الأدب ، يؤخذ منها بمقدار الحاجة ، وليست هي الغاية ، ولا هي المقصودة بالذات .

وهناك ما هو أوسع من النقد وهو (تاريخ الأدب) ، وعلى مؤرخ الأدب – عدا عن تقويم الآثار – يرتبها ، ويصنفها ، وهذا التصنيف هو الأساس في تاريخ الأدب .

ويلاحظ اتجاه جديد في النقد ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الغاية من تحويل النقد إلى علم موضوعي ، والخروج به عن هذا النطاق الشخصي الضيق ، ولا أراني بحاجة إلى ذكر مذاهب تين (Taine) وسانت بوف (Sainte beufe) وبرونتير (Bruntayere) في هذا المقام وإنما أشير إلى ذلك إشارة .

تلخص معنا إذن ، أن هناك شعورا بالجمال ووصفا لهذا الشعور، وهذا هو درس الإنشاء .

وأن هناك فهما لذا الوصف وتذوقا له وهذا هو درس النصوص ، وأن هناك تقويما لهذا الوصف ، وبيانا لمواطن الجمال ومواضع النقص فيه ، وهذا هو النقد .

وأن هنا كترتيب أو تصنيفا ودرسا شاملا ، وهذا هو تاريخ الأدب .

(ذكريات – □ صفحة □□□،□□□،□□□)

❊ ❊ ❊

ثم وقعت على كتاب فرنسي في الإنشاء لأستاذ اسمه بوسلي. (M (Baucely فيه أربعة وعشرون درسا بني نظري وعملي ، يشرح فيها المراحل التي يمر بها ذهن الكاتب ، وإن كانت تمر في عقله الباطن لا يحس غالبا بها ، وهي :

□ – تهيئة الأفكار ، ومصدرها الملاحظة والمطالعة ، وبين للطالب كيف يلاحظ ، وكيف يقرأ .

□ – تصنيف الأفكار ، ووضع خطة القطعة الأدبية ، وتصور أجزائها .

□ – التعبير عن الأفكار ، واختيار الكلمات ، وتأليف الجمل .

□ – خصائص الموضوع ، وهو مانسميه (علم المعاني) ، أي مطابقة الكلام لما تقتضيه الحال . (ذكريات – □ صفحة □□□) إن اللغة الإنجليزية أفظع اللغات وإن كنت لا أعرفها . أشهد عليها بما سمعته عنها .

فيها حروف تكتب ولا تقرأ ، وحروف تقرأ وهي غير مكتوبة ، وحروف تقرأ في كلمة على صورة وتقرأ في الكلمة الأخرى على صورة غيرها . وقواعدها سماعية ليست قياسية ، واللفظ بها شنيع . وهم مع ذلك قد

فرضوها على ربع العالم ، لأن أصحابها أهل اعتزاز بها ، وحرص عليها ، ونشاط في تسهيل تعليمها ، والدعوة إليها، حتى أننا نجعل لها في مدارسنا خمس الساعات الأسبوعية أو سدسها ، ونوزع الأخماس الأربعة على الدروس الباقية كلها ، ثم لا يأخذ منها أبناؤنا ما يسهل عليهم الدراسة بها ، إذا ذهبوا يتمون تعليمهم في البلاد الأخرى ، بل يمضون سنة من أعماره في تعلمها من جديد .

ولغتنا العربية ، أكمل لغات الأرض بلا جدال ، صارت لغة كاملة قبل أن يوجد في الدنيا كلها ، من يقول عن نفسه أنا إنجليزي ، وقبل أن تعرف الأرض هذا الجنس ، ولا أقول المبارك . ولم يشهد التاريخ ولادتها ولا طفولتها ، ولم يعرفها إلى بالغة رشدها ، لأنها أكبر من التاريخ وأقدم منه مولدا . ولا نزال نجد في هذه اللغة التي كانت مستعملة قبل ألفي سنة ، كلمات تفي بكل ما يحتاجه أستاذ الطب ، وأستاذ الحقوق ، وأستاذ العلوم في الجامعة ، ولا أقول هذا خيالا ولا فرضا مستحيلا ، بل أخبر عما صنعه أساتذة كلية الطب في دمشق حين عربوا المصطلحات كلها في السنين الستين الماضية .

ولكن قعد بهذه اللغة العربية النبيلة ، قعد بها أننا نحن أبناءها [4] لا نعتز بها اعتزاز الإنجليز بلغتهم الشوهاء ، ولا نحرص عليها حرصهم على لغتهم ، ولا ننشط في تعليمها ونشرها مثل نشاطهم ، بل إن فينا من يظن بأن من الظرف والحضارة أن يدع الكلمة العربية الفصحى ، وينطق بمرادفتها من الإنجليزي أو الفرنسية ، فلا نقول (خمار) ولا وشاح بل (أشارب) ولا نقول (معطف) ، بل نقول (مانطو) ولا نقول (تقانة) بل نقول (تكنولوجيا) ولا نقول (البرد) بل نقول (روب دو شامبر) وأمثال ذلك مئات .

(ذكريات – [illegible] صفحة [illegible])

* * *

والكليات جمع وإطلاق لفظ الجمع على الاثنين مذهب صحيح ، فقد قال تعالى : ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾

وأنا أرى أن دراسة البلاغة على هيئتها التي انتهي إليها الآن ، تكاد تكون تعبا فهي غير طائل . فهي لا تجعل دارسها بليغا ، ولا تصله بروائع الأدب كما كانت أول أمرها ، لما كانت نقدا منظما يمشي مع الأدب ، فكلما ابتدع الأدباء ء جديدا ، جاء هؤلاء النقاد فوضعوا له اسما ، وصنفوه مع أشباهه ونظائره ، حتى لخص القزويني

---

[4] كلمة أبنائها منصوبة على الاختصاص

كتاب السكاكي ، فوقفت البلاغة عند هذا (التلخيص) ، وعلقت به ، فما استطاعت الخلاص منه ، ولا جاء من يعينها على التخليص من قيد التلخيص .

وانحصرت شواهدها في نطاق محدود ، فلا يزال المدرسو ن يكررونه‌ا ويعيدونها ، حتى ملوا ومل الطلاب منها ، ولم يبق للبلاغة إلا نفع قليل في فهم بعض آيات الكتاب والسنة ، وما يوصل إلينا من روائع ما قال الأولون .

و(الإنشاء) يضعوه في المناهج تكملة عدد لا يقيمون له وزنا ،ولو أنصفوا لجعلوه في رأس المواد التي يطلب إجادتها من الطلاب ، لأن الدعوة إلى الله إنما تكون بالقلم وباللسان ، عليهما يقوم البيان ، وبهما يثبت الإيمان ، وتتفاوت أقدار الإنسان .

ولكن الأسلوب الذي يتبع في هذه المادة في البلاد العربية التي عرفت أكثرها ، يزيدها هوانا على هوانا ، عند المدرسين والطلاب ، إذا يكلف الطلاب بل يكلف التلاميذ في المدرسة الابتدائية الذي لم يبلغوا أن يسموا طلابا ، بالكتابة في موضوع يختاره لهم المدرس لولا يكون في الغالب إلا موضوعا باردا ، بعيدا عن حياة الطلاب ، ميتا لا روح فيه ، ثم لا يرسم للتلميذ الخطة التي يسير عليها ، ولا ينصب له مثالا ينحو نحوه أو يحتذيه ، وأنا رجل قد احترفت الكتابة ، وأنا أكتب من ستين سنة ، وما أخذت يوما في درس الإنشاء درجة عالية .

وأنا مهما تمسكت بفضيلة التواضع ، فلا أنكر أن لدي ما أستطيع أن أدرس به غير الإنشاء من المواد ، فأنا طول عمري معتزل في بيتي ، أمضي أكثر يومي في ليلي ونهاري ، في المطالعة من حيث تعلمت القراءة وأنا ابن عشر سنين إلى ألان وقد جازت الثمانين أقرا كل يوم عشر ساعات أو أكثر ، فما ظنك بمن يقرا كل يوم عشر ساعات على مدى سبعين سنة ، في جميع العلوم والفنون .

(ذكريات – [illegible] صفحة [illegible]).

* * *

فتبين لي وجوب تجديد أسلوب تدريس العقيدة ، أن الذي ألفوا كتب العقيدة الصحيحة إنما ردوا على الشبه التي كانت على أيامهم ، فكانت كتبهم دفعا لها ، وحماية للمسلمين منها كما كانت قلعة أجياد في مكة في يوم من الأيام تحمي البلد ، فلما جدت أسلحة لم تكن على عهد من بناها ، وبني أمثالها ، صارت تحفة أثرية وعمارة

تاريخية . لقد تبدلت طرق الهجوم على الإسلام فوجب أن نجدد طرق الذب عنه ودفع الأعداء عن حماه ، إنه لم يعد ينفعنا أن نرد على الفرق التي بادت وفني أهلها ، ولم يبق منها إلا ما روي في الكتب من عقائدها ، وأن نشتغل بالمذاهب الجديد ة التي تكيد للإسلام كيدا أشد من كيد الأولين ، إن محاربة الإسلام اليوم تقوم على مخططات محكمة ، تضعها عقول كبيرة جدا ، شريرة جدا ، وتؤيدها جهات قوية جدا ، وتنفق عليها أموال كثيرة جدا ، ودرس التوحيد في مدارسنا لا يقوى على رد هذه الشبهة ، لا لأن الإسلام ضعيف يخشى هجومها ، بل لأن التقصير مما يضع المناهج ، ومما يؤلف الكتب ، وممن يلقي الدروس ، إنه ليس في الإسلام قصور ، ولكنه التقصير منا المختارات التي تضعونها في كتب المطالعة ، وتلزمون التلاميذ بفهمها وحفظها ، هي العامل الأول في تنمية الملكة الأدبية في نفوسهم وتقويتها ، أو في إضعافها وإماتتها ، ولقد صرنا نجد من يكتب في الصحف يسخر من شوقي ومن لو أنصف الناس لنصبوه وإخوانه على الأعمدة ليكونوا عبرة لم يتجرأ على الحق وينصر الباطل ، يسخرون من شوقي وما ظهر من قرون من هو أشعر من شوقي .

شوقي الذي قال وهو في طراوة الشباب قبل أن يقوى عوده ، ويشتد أسره :

صوني جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهو الحسن روحانيا
أو فابتغي فلكا تأوينه ملكا   لا تنصبي شركـا للعالــم الفاني

قابلوا ناشدتكم الله بين هذا الكلام وبين ما يقوله شعراؤكم أهل الحداثة أو الحدث ؟شوقي القائل

أفضــي إلى ختـم الـزمـان ففضـه   وحبــا إلى التاريـخ في محرابـه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى   فرعون بين طعامه وشرابه

شوقي الذي أنطق في قصيدة الأزهر أكبر ناطق وهو الدنيا ، واسمع أعظم سامع وهو الزمان حي قال :

قم في الدنيا وحي الأزهرا   وانثر على سمع الزمان الجوهرا

شوقي الذي قال في قصيدة عن نابليون :

وضـع الشطـــرنج فاستقبلتـه بينـان عابــث اللاعب
صدت شاه الروس والنمسا معا من أي شاهين صيدا في كمين

لا يجوز في العرف الجامعي أن نلزم الطلاب بكتاب يدرس المدرس منه ، ويراجع الطالب فيه ، فإن كان الكتاب من تأليف أحد المدرسين ، وسايره زملاؤه فقرروه على الطلاب لإرضائه ، أو لجلب منفعة له ، كان ذلك أسوأ ، فإن تبادلوا المنافع يقرر هذا كتاب ذاك ، أو يعين على تقريره ، فيعود الآخر فيجزيه صنيعا بصنيع ، ويقرر له كتاب به ، كما هو واقع الآن في بعض الجامعات في بعض البلاد ، يكونوا قد بلغو الغاية التي ليس في السوء غاية بعدها .

. والنحو ثقيل على قلب التلاميذ ، ولقد لبثت سنين من عمري أدرسه ، فوجدت الجهد المبذول فيه كبير ا ، والثمرة المحصلة منه قليلة ، فذهب اقلب النظر ، وأجهد الفكر لتحديد أسباب ذلك ، فوجدته بكتب النحو في طريقة تدرسية .

وإن كنت أشهر أن يد الإصلاح قد امتدت إليها ، وأنها قد ظهرت كتب جديدة كثيرة ، خلت من بعض العيوب القديمة .

وما عيب النحو ؟

عيبه أنه يبعد عن الملكة ، ويشغل بالوسيلة عن الغاية .

كان الطفل العربي قبل فساد اللغة يتلقاها بالتقليد والمحاكاة ، فينشأ بليغ القول ، فصيح اللسان ، بعيدا عن اللحن لأن أبويه من أهل البلاغة والفصاحة ، ولأن اللسان الذي يتكلمون به قريب من لسان الكتابة ولسان الأدب ، فصرنا نعلم أو صار أكثرنا يعلم قواعد اللغة العربية باللغة العامية ، كما كان معلمنا التركي على عهد العثمانيين ، يوم كنت صغيرا في المدرسة الابتدائية أيام الحرب الأولى يسألنا ﴿فاعل نهدر﴾ ؟ أي ما هو الفاعل ؟ لا أستطيع أن أحصي الأمثلة ، ولكن أعرض واحدا منها . لما كنت أعلم في الابتدائية كان الكتاب المقرر يعرف الاسم بأنه)اللفظ الدال على معنى مستقل بالذهن وليس الزمن جزءا منه ﴾ وكان علي أن أفهم هذا التعريف .

(ذكريات ؟ صفحة□□□)

* * *

وأقول بالمناسبة قبل أن أنتقل إلى الشق الثاني من حلقة اليوم ، أقول كلمة عن مناهج الدين وعن كتب الدين ، إن بعض البلاد الإسلامية خمس ساعات في الأسبوع لتدريس القرآن وعلوم الدين ، ولكن هذه الساعات يذهب أكثرها هدرا فلا يستفاد منه ، ولا نصل إلى الثمرة المقصودة . ذلك أن التلميذ يأخذ كتاب التاريخ وكتاب الجغرافية ، وكتاب العلوم ، فيجد لغة سهلة واضحة مفهومة . ثم يأخذ كتاب الدين المقرر فيجد كلاما بعيدا عما يألف وما يعرف . ذلك أننا ننقل من كتب مؤلفة قبل مئات من السنين ، فنثبت ما فيها فيكتب المدارس . وأنا أعلم أن حقائق الدين لا تتبدل ، وأن تبديلها كفر بها ، وخروج عليها ، فلا يفهم أحد أنني أدعو إلى تغيير أحكام الدين وحقائقه ، إن الذي أدعو إليه هو تجديد الأسلوب وأن تكون كتب الدين مكتوبة بلغ العصر ، فإن لكم عصر لغة يفهم بها أبناؤه (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) .

ومن مقتضى ما أطلبه من تبديل الأسلوب أن تبدل المقاييس مثلا ، فلا نقيس بالقلتين ، لأنه لم يعد يعرض أحد ما هي ﴿القلة﴾حتى ولا أهل هجر التي يقولون إنهم يعتمدون فيها على قلال هجر ، بل لم يعد يعرف أكثر الناس أين هجر ، أهي بالقطيف ، أم هي البحرين ؟ والناس يقيسون المسافات بالأكيال ، لا بالفراسخ ولا بالبرد ، فلماذا نعلم الطلاب مسافة السفر الذي تقصر الصلاة ، ويفطر فيه الصائم إن شاء بهذه المقاييس القديمة ؟ والناس إنما يزنون بالكيل (الكليو وهي كلمة يونانية معناها ألف) والغرام ، ونحن نزن بالقيراط وبالمثقال بحبة الشعير ، ومن من الناس يعرف ما هو (الوسق) ويعرف ما مقدار الخمسة (الأوسق) ؟ وان تراعي في الكتب حالة التلاميذ الذي توضع لهم . جاءتني مرة بنت صغيرة في الصف الرابع الابتدائي وسألتني ما هي ﴿الحشفة﴾ ؟ فقلت : لا أدري ، فمن أين سمعت بها ؟ قالت : هي في كتابنا ، فأخذت الكتاب فإذا فيه بيان موجبات الغسل وأن منها ﴿أن تتوارى الحشفة في الفرج﴾ .

فناشدتكم الله مرة ثانية أهذا مما يكتب في كتاب للبنات الصغيرات ؟ فلو أنهم كن كبيرات بالغات ، وعلمناهن مثل هذا فلا ينكره أحد لأنه دين ينبغي أن يعرف ، وإن كان علينا أن نعرف به بأيسر عبارة تفيد ولا توقع فيما هو محذور .

والبنات الكبيرات ما لنا نعلمهن تفصيلا مسائل البيع والشراء وهن مقصورات في البيوت لا يبعن ولا يشترين ؟ أنا أعلم أنها من أحكام الدين ، لكن كل امرئ يعلم ما يحتاج إليه ، وفي كتب التلاميذ أنواع من البيع مابقي .

(ذكريات- صفحة [illegible])

* * *

كتاب اللغة العربية لحفني ناصف وإخوانه ، في الصف السابع ، أي في السنة الأولى من الدراسة المتوسطة ، وهذا الكتاب يحوي من القواعد أكثر مما يحويه شرح ابن عقيل ، إنه يكفي الكاتب والأديب إذا وعاه وحفظ ما فيه ، فضلا عن الطالب أو معلم الابتدائي . .

(ذكريات – صفحة [illegible])

* * *

الأب الذي له خمسة أولاد إن قعد معهم من الصباح إلى المساء أحس أن الجنون يقترب منه ، فكيف بمن يقعد كل يوم مع عشرات وعشرات من الأولاد !؟ الأب يضرب أولاده ، والمعلم ممنوع من الضرب ، والذي يضعون المناهج للأولاد ، ويؤلفون لهم الكتب هم في واد والأولاد في واد ، وكان علينا في درس النحو في السنة الثالثة الابتدائية أن نعنى بهذه التعريفات . وأقل كلمة على الهامش ، مع أنها في الصميم ينبغي الانتباه إليها . أقول : إن هذه التعريفات التي نملأ بها كتب النحو الحاجة إليها ولا خير فيها .

ولطالما تعبت لما كنت تلميذا وتعبت لما صرت معلما في الجواب على هذا السؤال : كيف تصوغ المضارع من الماضي ؟ .

كيف أصوغ ؟ أنا أعرف كيف أصوغه فلماذا أشرحه لكم ، وتوضيح الواضحات من أشكل المشكلات ؟

كان العرب الأولون وهم أهل اللسان الذي أخذ عنهم لايدرون شيئا من هذه التعريفات ، حتى أن أحمد بن فارس روى عن أعرابي لما سألوه : أتجر فلسطين ؟ لم يفهم معنى الجر عندهم وأخذه على معنها اللغوي فقال : إني إذن لقوي . ولما سألوا آخر : أتهمز إسرائيل ؟ فهم الهمز على أنه الغمز واللمز واللكز ، ولم يعرف معناه

المصطلح عليه فقال : ما كنت رجل سوء . وأنا لا أريد أن ندع هذه المصطلحات كلها بل أن ندع هذه التعريفات .

كنت أعلم التلاميذ ما جاء في الكتاب في تعريف الاسم (وانه الكلمة التي تدل على معنى مستقل في الفهم وليس الزمن جزءا منه) شرحت ذلك وأعدته ، وكررته فلم يفهموا عني ، وكيف يفهمونه وهو أعلى مما تصل

إليه أفكارهم وأفها مه م ، وبعد أن تكلمت ربع ساعة قلت : من فهم ؟ فرفع ولد إصبعه فحمدت الله على أن واحدا منهم قد فهم ، وقلت :

قم يا بني بارك الله فيك فأخبرني ما ه و الاسم فقال :

يا أستاذ هذا داس على رجلي . فضحكت به : ويحك إني أسألك عن تعريف الاسم فلماذا تضع رجلك في التعريف ؟ ألم أقل لكم : إن هذه الشكاوي ممنوعة أثناء الدرس ؟ فقال: ولماذا يدوس هو على رجلي ؟ فصحت بالآخر لم دست على رجله يا ولد ؟ فقال : والله كذاب ما دست رجله، ولكن هو الذي عضني في أذني ، فغضبت وصرخت : وكيف يعضك وأنا قاعد هنا ؟

فقال : ليس الآن ولكنه عضني أمس .

وتطوع العفاريت الصغار بالشهادة للمدعي وللمدعى عليه . وزلزل الفصل ، فضربت المنصة بالعصا وأسكتهم جميعا ، وهددت من يتكلم منهم بأقسى العقوبات . ولست أدري أنا ما أقسى العقوبات هذه فسكتوا وعادوا إلى الدرس ، هذه صورة مما كنت ألقي وإنها الصور النادرة ، لأنني كنت أضبط الصف فيكون هادئا ساكنا لا عن خوف خالص مني ، بل عن خوف مشوب با لمحبة ، وكنا نضرب أحيانا . .

(ذكريات – صفحة [illegible])

* * *

رابعاً : فوائد تتعلق بالطالب

إقبالنا على العلم ، فقد كان أكبر من إقبال الطلاب الآن من غير شك . وسبب ذلك أمران :
الأول : أننا كنا في بداية يقظة فكرية جاءت بعد نوم طويل . الثاني : أنه لم تكن عندنا هذه الصوارف التي تصرف الطلاب عن العلم ، والمعلمين ع نحسن الاستعداد للتعليم ما كانت إذاعات ولا كان شريط التسجيل ، ولا كانت هذه المجلات ، ولا كانت الأسفار بالطيارات ولا الجولات في السيارات . نعم كان عندنا داران للسينما الصامتة لا يدخلهما إلا من سفه نفسه ، وكانت دمشق عدا المرجهة وما حولها ، وباب توما والقصاع وهما مسكن النصاري ، كانت تنام ن بعد صلاة العشاء . حتى المقاهي الشعبية لم يكن يسهر روادها إلى أكثر من الساعة الثالثة أو الرابعة (بعد غروب الشمس) يستمعون إلى الحكواتي أو يشاهدون (كراكوز) ④ وهو خيال الظل ، ثم يمضون إلى بيوتهم ، وما وراء ذلك من اللهو لم أكن أعرفه . شغلي الدائم المطالعة

يقرع التلاميذ اليوم أبواب المدارس المتوسطة ، وما معهم من العلم إلا ما كان في كتب المدرسة الابتدائية . وكثير منهم لم يقرأها كلها ، أو قرأها ولكن لم يفهمها كلها ، أو فهمها ولكن لم يحفظها كلها .
وما ذاك لأنهم أُقل منا ذكاء أو أضعف إدراكا ، بل لأننا كنا أشد منهم رغبة في العلم وتقديرا له ، وحرصا عليه. منا نفرح إن ازددنا علم مسألة لم نكن نعلمها ، وهم يفرحون إن حطت عنهم مسألة كانوا سيكلفون علمها .
ثم إننا لم نكن نجد ملهاة تصرفنا حقا عن التحصيل ، وهم لا يجدون لكثرة الملهيات ووفرة التسليات ، وقتا للتحصيل .

(ذكريات – □ صفحة □□□)

* * *

قلم إن شئته غصنا من أغصان الجنة أورق وأزهر وأنعش القلوب ، وإن شئته حطبة من حطب جهنم أحرق ودمر
(ذكريات– □ صفحة □□□)

* * *

وأعدوا لتلقيه الصغار ، وهذا مما تنبه إليه أعداؤنا ، وغفلنا نحن عن ، هو الاهتمام بالأطفال هم أمة المستقبل ، نفوسهم صفح بيضاء ، تنقش عليها ما تشاء ، وقلوبهم عجينة طرية ، إنهم كالأرض الخلاء ، تقيم عليها البناء ، بلا تعب ولا عناء . والكبار كالبيت القديم ، عليك إذا أردت تجديده أن تهدمه وأن تنقل أنقاضه وأن تخلي أرضه ثم تقيم البناء الجديد عليه .

فتداركوا أطفالكم ، انظروا المربين والمربيات الذي تسلموهم إياهم ، انظروا المدارس التي تبعثون إليها بهم ، انظروا المعلمين الذي تقعدونهم بين أيديهم ، تنبهوا فإن كل كلمة تلقى في أذن الطفل وكل بذرة عقيدة تغرس في قلبه ، سيكون لها أثر ظاهر في مقبل أيامه ، في دينه وفي خلقه وفي سلوكه . لقد طالما قلت وأعدت وكررت القول إن بذور الخير والشر والإيمان والكفر ، تغرس في نفوس الأطفال في السنوات الخمس أو الست الأولى من أعمارهم ، فالله الله في أطفالكم .

(ذكريات – □ – صفحة □□□)

❊ ❊ ❊

لا تقل قد ذهبت أربابه   كل من سار على الدرب وصل

هذه اليابان : ماذا كانت اليابان قبل مئة سنة أو تزيد قليلا ، وماذا صارت الآن اليابان .

(ذكريات – □ – صفحة □□□)

❊ ❊ ❊

وهذه رسالة كريمة ، جاءتني من يومين، من مرسل يبدو أنه أستاذ كريم ، يقول فيها :

لقد اشتغلت بالتربية والتعليم كما علمنا منك وسمعنا عنك ، من زمن طويل ، ولقد عرضت بعض ذكرياتك في التعليم ، أفليس عندك ذكريات في علم التربية ؟ ويا ليتك تعرف من لا يعرف بهذا العلم ، وبتجاربكم بتطبيقاته ، فتكتب حلقات ، إن لم يجيء فيها علم ينفع المربين ، فلا بد أن يكون فيها أدب وفن يمتع جمهور القارئين .

هذا خلاصة ما جاء في الرسالة ، كتبتها بقلمي ، وعرضتها بأسلوبي .

أما الكلام في معنى العلم والتربية ، فليس ذكرى من ذكرياتي ، التي لا يعرفها غيري ، لأنها جزء من حياتي ، فيحق بذلك لي وحدي الكلام فيها ، بل هي قدر مشترك بين كل المفكرين ، ومن قراء الجريدة من هو أقدر عليه وأعرف به مني .

وأنا لم أدرس التربية كما يدرسها المختصون فيها ، المنقطعون إليها ، وليس في يدي شهادة من أساتذتها ، على أني من أهلها ، ولكني شاركت في تربية إخوتي ، وربيت بناتي ، وأشرفت على تربية أحفادي وحفيداتي . وقد بلغ عدد من ذكرت إلى الآن واحدا وأربعين ، أفلا تكفيني هذه التجارب وتكون شهادة لي على أن لي معرفة ببعض طرائق التربية ؟ وقد بدأت التعليم من إحدى وستين سنة ، من سنة [illegible]هـ وقرأت من كتبها كل ما وصلت إليه يدي ، ولا أدعي مع ذلك أني صرت من كبار المربين ولا أني من صغارهم . أما تعريف التربية كما أرى ، تعريفا قريبا من الأفهام ، بعيدا عما أودعته في الكتب الأقلام ، التعريف المنبثق من فكري أنا ، لا المنقول من الكتب التي ألفها مؤلفوها فهو :

أن سلوك الإنسان مجموعة عادات ، وإن كل عمل جديد هو بداية عادة جديدة ، إما أن يستمر فيها وإما أن يرجع عنها . فالتربية هي غرس العادات النافعة ، والصرف عن العادات الضارة .

وعندنا العلم الذي يقابل الفن ، وقد سبق مني القول فيه مرارا ، وبيانه أن مطامح البشر تقف عند ثلاث هي : الحق والخير والجمال . تلك هي المثل العليا .

(ذكريات [illegible] – صفحة [illegible])

* * *

وشيء آخر لعله من أسباب ضعف الطلاب في الدروس كلها وفي العربية على التخصيص ، أخشى إن قلت الحق فيه أن أغضب ناسا ما لي إلى إغضابهم رغبة هو أن الاهتمام بالشيء بمقدار الحاجة إليه ، وتعرف الحاجة إليه بمقدار الخسارة في فقده ، ونحن نحتاج إلى من يعلم أولادنا ، ومن يداوي مرضانا ، ومن يضمن إقامة العدل فينا، ويؤدب الجانحين والمجرمين منا ونحتاج قبل ذلك إلى من يدلنا على طريق النجاة في آخرتنا ، والوصول إلى رضى ربنا ، فهل إدخال الكرة في شبكة في الملعب أهم من هذا كله هذا هو السؤال ، فلا تغضبوا إن أنا سألتكم ، فما أريد إلا أن أتعلم ، فلماذا نتهم بهذا اللاعب أكثر من اهتمامنا بالطبيب وبالمدرس ، وبالأستاذ ، وبالواعظ ؟ وكيف نرغب الطلاب في القواعد والإملاء ، وهم يرون هؤلاء ينالون منا التكريم أكثر مما ينله الخليل والمبرد وأئمة اللغة أجمعين ، لو بعثهم الله القادر على كل شيء من قبورهم فمشوا بيننا وعاشوا معنا ؟ وأنا لا أقول لكم أتركوا العناية بالرياضة ، لأنها من القوة التي أمر الإسلام بإعدادها ، والقوة زينة الرجال ، قوة العلم ، وقوة الجسم وقوة الإيمان ، ولكن الذي أقوله لكم أن لا تدفعوا ثلاثمائة ريال مثلا في بضاعة مهما غلت لا تساوي إلا خمسة عشر ريالا .

أعود إلى كتب المطالعة وما تضعونه فيه ، فهل تريدون الحقيقة الصادقة ، والنصح المخلص أم أنكم لا تحبون الناصحين ، وأعيذكم بالله من ذلك ؟ جنبوا كتب المطالعة هذا لأدب الذي تسمونه يوم بأدب الحداثة ، ويوما بالشعر المنثور ، كما قال المازني رحمة الله مازحا ساخرا لما سأله عنه ، ويوما بقصيدة النثر ، وكل ذلك من مظاهر العجز عن نظم الشعر البليغ ، كالثعلب لما لم يصل إلى عنقود العنب قال إنه حامض ، واختاروا له مما يقوي مملكتهم العربية ، ولأن العربية والإسلام لا يكادان يفترقان ، لقد حاقت بالعربية نكبات ، واعترضت

طريقها عقبات ، ونزلت بها من نوازل الدهر المعضلات ، ولكن ما مر بها يوم هو أشد عليها ، وأنكى أثرا فيها ، من هذا الأدب المزور الذي سميتموه أدب الحداثة ، إنه ليس انتقالا من مذهب في الشعر إلى مذهب للبشر فما كانت غايته الحق ، وسبيله الفكر ، وأداته المحاكمة فهو (العلم) ، وما كانت غايته الجمال ، وسبيله الشعور ، وأداته الذوق فهو ﴿الفن﴾ أما العلم بمعنى Science كعلم الطب والفيزياء ، فله عند علمائنا الأولين تعريفات كثيرة جدا ، ولكن أود تعريف سمعت به ، وأقربه إلى الوضوح ، ماقاله سارطون ، ولا يضرنا أن نأخذ منه فإن الحكمة ضالة المؤمن ، أي أنه ملك له ضاع منه ، وند عنه فهو يلتقطها حيث وجدها .

(ذكريات – □ – صفحة □□□□، □□□□، □□□)

❊ ❊ ❊

فيا شباب الأزهر أنتم ورثة هذا المجد كله ، أنتم خلفاء الجدود فصلوا طريقكم بتليدكم ، وأتموا بفعالكم مجد أسلافكم : بالعلم لا تسمو الأمم إلا بالعلم ، بالبيان لا علم إلا ببيان ، ولا فكر إلا بلسان ، بالأخلاق أخلاق العلماء الذي أخلصوا الخضوع لله ، فخضع لهم جبابرة البشر ، وألقوا كلمة السماء فعرفتهم فوق أهل الأرض .

وزهدوا بزخارف الدنيا ، وأوهام الجاه ، فانقادت لهم الدنيا وسعى إليهم الجاه ، وبالأخلاق فالأخلاق قبل العلم ، ونحن لا نريد نسخه من الكتاب ، ولكن نريد رجالا يكونون نماذج للمسلم الكامل ، نريد دعاة إلى الله بالأفعال لا بالقوال .

وابتغوا القوة في كل شيء ، فلا شيء كالقوة يزين الرجال قوة الجسم وقوة العلم ، وقوة اللسان وقوة الجنان ، فلقد كان محمدا صلى الله عليه وسلم رجلا كامل الرجولة .

إن شعلة الإسلام اليوم وسط هبات من زوابع الباطل ، ولن تنطفئ إن شاء الله ، وستخمد هذه الرياح كما خمدت من قبل رياح أشد منها قوة ، وأعلى عزيفا ، ولكن لابد من دفعها عن الإسلام.

(فصول إسلامية – صفحة [illegible])

* * *

كنت مرة في المعهد العالي للمعلمين ، ففاجأت الطلاب بسؤال ، لماذا دخلتم هذا المعهد ؟ ولماذا اخترتم مهنة التعليم ؟ وتبين لي أن أكثرهم ، بل أن أكثر الناس يعملون ما يعملون بلا نية ، ولو استحضروا نية لكان كل عمل عبادة ، يأكلون ويكون أكلهم عبادة ، وينامون ويكون نومهم عبادة ، ويجتمع أحدهم بأهله ويكون هذا الاجتماع عبادة ، تبين لي أن أكثر الطلاب ما فكروا بشيء من هذا ، بل بلغوا سن المدرسة فأدخلوهم إليها وانتقلوا من صف إلى صف ، حتى أكملوا الابتدائية ، فدخلوا مع من دخل في المتوسطة ، ثم تدرجوا فيها درجة درجة ، سنة بعد سنه ، حتى وصلوا إلى الدراسة العالية ، فنبهتهم إلى النية وأثرها في أعمال الإنسان ، وأنها هي التي تجعل المباح الذي لا يثاب فاعله ولا يعاقب عبادة تستحق من الله بكرمه الثواب . .

(ذكريات [illegible] - صفحة [illegible])

* * *

ماذا يراد بالأزهر ؟!

أنا لا أقرأ هذه المجلات المصرية ، وأمنعها أن تدخل بيتي ، كما أمنع نفسي أن تدخل بيوت الفحش ، وأنزهها عنها كما أنزهها عن مواطن الإثم ، لذلك لم أر شيئا مما كتب طه حسين في هذا ، ولا ما كتبوا عنه ، حتى خبرني صديق لي ، أن طه حسين يقترح إغلاق المعهد الذي علمه وأفضل عليه ، والذي هو فخر مصر ، ومهوى قلوب المسلمين .

الأزهر الذي جعل لمصر في دنيا الإسلام من المنزلة في القلوب ، والحرمة في النفوس ، ما ليس لبلد بعد المساجد الثلاثة ، فلا تذكر مصر إلا ذكر الأزهر و يتمنى مسلم الحج إلا تمنى معه زيارة الأزهر ، والذي صير مصر (معلمه) العالم الإسلامي ، عن علمائها يؤخذ العلم ، ومنهم يتعلم التقى وغاية أماني الشامي والعراقي ، والأفغاني الهندي ، والبخاري والتركي ، والجاوي والملاوي ، وكل شاب مسلم في الشرق والغرب ، من الصين وأندونيسيا إلى مراكش والصومال ، وألبانيا والمجر ، أن يرحل إليهم ، ويكون له شرف القعود بين أيديهم .

الأزهر الذي بقي ألف سنة ، وهو أمل المسلمين في أرجاء الأرض كلها ، كلما أدلهم ظلام الجهل ، وتراكبت دجى الشهوات ، وتتالت عواصف النكبات والأرزاء ، وكاد يملأ القلوب اليأس ، نظروا إليه فرأوا مصباحه لايزال يضيء ، يلمع من بعيد كالمنار الهادي ، يبدو للسفن الضالة في سواد الليل ، يدلها على الشاطئ الآمن ، فسعوا إليه ، يقبسون من نوره ما يبدد ظلام الآحداث .

الأزهر الذي كان يتسابق الملوك إلى رفع دعائمه ، وتوسيع جنباته وعمارته ، عمارة الإشادة والبنيان ، وعمارة العبادة والإيمان ، فلا يرى الملك أنه كتب في التاريخ حتى يترك في الأزهر أثرا . الأزهر الذي كان يجيئه الحاكم الجبار ، فإذا دخل حماه ، وجاز عتبته ، أحس أن سلطانه وجبروته ، قد بقيا خارج الباب فطأطأ الرأس خضوعا ، ثم جاء حتى قبل يد الشيخ ، وقعد في حلقته مع أصغر تلاميذه . الأزهر الذي طالما ورده الغلام الجاهل ، الريفي أو الأعجمي ، ثم صدر عنه وهو إمام العربية وحجة الله على الناس ، فأحيا به الله قرية ، أو بلدة ، أو قطرا كاملا .

الأزهر الذي وقف في وجه الزمان ، وتكسرت على جدرانه أمواج الأحداث ولم تلو به ولم تزعزعه ، نكبات الشرق ولا نكبات الغرب ، لا جحافل المغول نالت منه و لاجيوش الصليبيين ، أفتكون نهايته أن يقضى عليه الحكام المسلمون ، في البلد المسلم .

أبعد ما لبث أكثر من ألف سنة ؛ هل في الأرض جامعة نيف عمرها على الألف سنة ألف سنة ! كم أقيم فيه خلالها من صلاة ؟ كم ألقي فيه من دروس ؟ كم ظهر فيه من علماء ؟ كم انبثق عنه من مصنفات ؟ كم أحيا بالعلم عقولا كانت ميتة ؟ كم أنار بالموعظة قلوبا كانت مظلمة ، كم صفت على ثراه أقدام ، تقوم فيه وراء

سجف الظلام لا يدري بها إلا الله ، كم وضعت عليه من جباه كريمة ما كانت تذل في طلب الدنيا لأحد ؟ كم ارتفع من جوف . .

(فصول إسلامية صفحة [illegible])

* * *

خامساً : فوائد تتعلق بالمدرسة .

كانت المدارس كالبئر ضيقة الفوهة ، ولكنها عمية القرار ، فصارت كالبركة الضحلة واسعة الرقعة ، لكنها قليلة العمق .

(ذكريات [illegible] صفحة [illegible])

* * *

كانت المدارس النصرانية فقد فتحت لأهلها ، ولم يكن لأبنائها مكان فيها ، ولكنها امتلأت على مرا لسنين بأبناء المسلمين ، بحجة تعلم اللغة الأجنبية . وهذا ه الحجة الواهية التي لا تثبت للنظر ولا للتمحيص ، قد جرت علينا شرا كبيرا .

أما المدارس الأهلية فكانت هو الأقوم سبيلا ، والأكثر عددا ، . وكان يملكها آحاد من الناس ، ما للحكومة دخل في وضع مناهجها ، ولا في إدارتها ن ولا في اختيار معلميها وأساتذتها .

وكانت تحرص على تلقين الطلاب العلوم الإسلامية ، وتعويدهم على أداء الواجبات والبعد عن المحرمات ، ولكنها كانت تسلك في التربية ، وفي أساليب التدريس ، أسوأ السبل .

تقدمت الدنيا وارتقى التعليم فيها وهي في مكانها ، لا تشعر بهذا التقديم ، ولا تحس هذا الارتقاء .

وكانت الشدة والقسوة هي الطريقة المختارة فيها ، وكان الفلق (التي تسميها العامة الفلقة أو الفلكة) وعصا الخيزران هما عنوان تربية الأولاد ، وكانت هذه المدارس درجات :

أدناها «الخجة» والخجة امرأة تعلم في بيتها ، يأتون إليها بالأطفال لتحفظهم قصار السور ، أو تلقنهم حروف الهجاء ، وتكون غالبا أمية ، أو شبه أمية ، شمت رائحة العلم ، ومشت في طريقه خطوة واحدة .

وربما وجدت «خجة» على شيء من المعرفة والإدراك ، وذلك قليل .. فقد كان عندنا في حي الصالحية في دمشق خجة ، عندها مدرسة أولية ، فيها أكثر من مائة وعشرين تلميذا ، مقسومين إلى ثلاث شعب ، يقعدون على مثال مقاعد المدرسة ، ويدرسون مثل ما يدرسه تلاميذ المدرسة .

وأرقى من الخجة «الكتاب» ولي تجربة فيه كتبت عنها كثير من المقالات ، ولكني نسيت أن أودعها هذه الذكريات . أدخلني جدي إليه قبيل إعلان الحرب الأولى ، وأنا طفل ما أحسب أني جاوزت الخامسة إلا قليلا ، فلبثت في هذا الكتاب من بعد صلاة الظهر ، إلى أن كان الانصراف بعد العصر . ساعات أو ثلاث ساعات ، مر عليها الآن ثلاث وسبعون سنة ، وكلما تذكرتها ، أحسست الرعب الذي أصابني فيها ، والألم الذي دخل علي منها والشقاء الذي استهللت به حياتي العلمية .

فماذا يكون مبلغ العذاب الذي مر عليه أكثر من سبعين سنة ، ولا تزال مرارته في قلبي ، ولا أزال كلما ذكرته كأنني أراه أمامي ! .

وفوق ذلك مدارس ابتدائية منظمة عرفتها تلميذا ثم علمت في أكثرها . .
(ذكريات – [illegible] – صفحة [illegible])

* * *

سادساً : الأعداء والتعليم .

وهذه سنة المستعمرين في كل زمان وكل مكان ، يعمدون إلى الصغار الذي لا تزال عظامهم طرية ، وسرائرهم نقية ، وهم مستعدون لقبول كل ما يلقى إليهم ، فيربونهم على ما يريدون هم ،لا على ما يريد لهم دينهم ومصلحة بلدهم ، يأخذونه عجينة ، فيشكلونها على الشكل الذي يعجبهم ، ثم يخبزونها في أفرانهم ، وقد جروا على هذا لما جاءونا (مبشرين) ، أي مكفرين ومنصرين ، فأنشئوا في قرى الجبل المدارس التي صارت من بعد

الجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية ، وفتحوا المستشفيات يداوون فيها الأجساد ويمرضون الأرواح ، فلما دخلو ا علينا بعد (ميسلون) وصاروا هم المتحكمين فينا وصار إليهم أمرنا ، أعلنوا خطتهم فبدؤوا بعلوم الدين ، وهي التوحيد والتجويد والفقه والأصول والحديث والمصطلح ، فجعلوها مادة واحدة سموها درس الدين وأعطوها من الوقت كالذي يعطي للرياضة أو الموسيقى أو الرسم ، ثم ربطوا الدروس كلها ، في السنوات الأولى التي يكون فيها التأسيس ، والتي تغرس فيها في نفوس التلاميذ بذور الكفر أو الإيمان ، والصلاح أو الفساد ، والفصاحة والبلاغة ، أو العي والركاكة ، فإذا لم يدرس التلميذ فيها قواعد لغته لم يتعلمها أبدا ، ربطوها كلها بمعلم واحد ، ربما كان نصرانيا أو كان ملحدا أو كان مسلما بالاسم ، مهملا للواجبات مرتكبا المحرمات ، ومن جملة هذه الدروس (درس الدين) . وجعلوا الطفل في مدرسة الحضانة يتعلم (A B C) مع (ألف با تاء) ، حتى صار منهم من يتقن الفرنسية أكثر مما يتقن العربية ، وجعلوا الحديث بين الطلاب في(الفسحة) بالفرنسية ، فمن تكلم العربية أعطي (السينيال) ، وهي قطعة من الخشب أو النحاس ، على من يعطاها أن يراقب التلاميذ حتى إذا رأي متكلما بالعربية دفعها إليه ، ومتى قرع جرس الدرس وهي معه نال العقاب .

(ذكريات ـ[illegible] – صفحة [illegible])

* * *

فلما جاء الفرنسيون كان أول ما صنعوه أن جمعوا العلوم الإسلامية كلها في درس واحد سموه درس الديانة ، ثم جعلوا عنوانه التربية الدينية ، في مقابل التربية الرياضية للجسم ، والتربية الفنية أي الموسيقى والغناء والرسم . هذا والتربية شيء غير التعليم ، وإن كان أحدهما لا يغني عن الآخر ولا بد من جمعهما .

وجعلوا لذلك كله ساعة واحدة في الأسبوع ، أي أنهم أعطوه مثل الذي يعطي للرسم وللموسيقى وللرياضة . فما الذي يمكن أن يتلقاه التلميذ في ساعة واحدة من هذه العلوم كلها ؟ ولماذا لم يجعلوا للرياضيات بأقسامها ، وهي الحساب والجبر والمثلثات والهندسة المسطحة والهندسة الفراغية والهندسة النسبية ؟ أو للطبيعيات

بعلومها : الفيزياء بأنواعها ، والكيمياء بأقسامها والحيوان والنبات ؟ هذا ما لبثنا أكثر من أربعين سنة ونحن نقوله لهم فلا يستجيب لنا أحد ، ولا يريد أن يفهم عنا أحد .

ثم ابتدعوا بدعة ظاهرها تنظيم إداري لا اعتراض لنا عليه ، بل لا شأن لنا به ، ولكن باطنه ا محاربة الإسلام ، وإضعافه في نفوس الأطفال . هي أن يتسلم معلم واحد الصف (أي الفصل) كله بدروسه كلها ، فيدرس الدين والعربية الرياضيات والطبيعيات والريم والموسيقى وكل ما يكلف الطلاب بتلقيه .

وقد وقع في أول الاحتلال أن كلف معلم نصراني في بيروت بتدريس السيرة وتاريخ الصحابة ، وكان مفتي بيروت – إن صح ما أذكر – الشيخ مصطفى نجا رحمة الله عليه ، فذهب إلى المفوضية وطلب مقابلة المفوض السامي ، فلما دخل عليه رحب به وسأل الترجمان عما يريده ، فقال له :

إن عندي شابا مسلما مطلعا على ديانتكم ، وعلى تاريخ كنيستكم ، وسير قديسيكم ، فأنا أطلب منكم أن تجعلوه معلما في المدارس المسيحية الكنسية ، ليدرس أبنا النصارى . فعجب المفوض السامي ، وسأل الترجمان هل الشيخ يجد أم هو يمزح ؟ فقال الشيخ : أنني أطلب ذلك جادا . فقال له المفوض : كيف تريد أن نسلم أبناء النصارى إلى معلم لا يؤمن بدينهم ؟ فقال المفتي : هذا ما جئت من أجله ، جئت لا سأل كيف ترضون أن نسلم أبناءنا إلى معلم ليس دينه من ديننا ، ويكفر بما نؤمن به . .

(ذكريات [illegible] – صفحة [illegible])

* * *

ثم ابتدعوا بدعة أخرى ، كانت أشد علينا من الأولى وأنكى فينا منها ، هي أنهم لم يدخلوا دروس الدين في الامتحان . وأكثر الطلاب إما يدخلون المدارس للشهادة لا للعلم ، ويحرصون على النجاح في الامتحان أكثر من حرصهم على الفائدة من التعلم ، فكانت النتيجة أن أهمل التلاميذ درس الدين ، ولما يدرسونه والعلم به لا ينفهم ، والجهل به لا يضرهم ، لأن غايتهم النجاح والشهادة .

ولقد سعينا سعيا حثيثا دائبا ، في سنين متطاولة متعاقبة حتى استطعنا أن نجعل له ساعتين في الأسبوع بدل الساعة الواحدة ، ثم ألغيت الساعة الثانية وعاد كما كان .

والثالثة أن الفرنسيين أضعفوا العربية ، بأن قرنوها بالفرنسية وجعلوا التلميذ من حين دخولة المدرسة ، ابن ست سنين ، يبدأ بتعلم C,B,A الفرنسية مع أ ، ب ، ت ، العربية .

والجاحظ يقول : ما جمع أحد لغتين ، إلا أدخلت إحداهما الضيم على أختها ، وإن كنا لا نسلم للجاحظ ما قال ، ونعرف من الناس من أتقن ألسنا كثيرة ، ولغات متعددة ، وكان فيها كلها السابق المجلي .

صار يبدأ الولد بتعلم الفرنسية حين يبدأ بتعلم العربية ، والإنجليز والفرنسيون رسموا لتعليم لغاتهم خططا ووضعوا لها أساليب ، وصنعوا لها مرغبات تستهوي التلاميذ الصغار ، لم نكن نملك يومئذ (أي قبل ستين سنة) مثلها ، فكانت النتيجة أن قويت الفرنسية على حساب العربية .

وإن كان من الحق أن نذكر مالهم كما نذكر ما عليهم ، إن الفرنسيين رغم هذا كانوا يهتمون باللغة العربية أكثر من اهتمام من جاء بعدهم . ولقد قلت لكم إننا كنا نقرأ . والرابعة أنهم حاربوا التاريخ الإسلامي فكان الواحد من أبنائنا ، بل لقد كان رفاقنا لما كنا نتعلم أيام الفرنسيين في أوائل عهدهم بالانتداب في المدارس ، كان إخواني يعرفون من تاريخ فرنسا وتاريخ نابليون ومن جاء بعده من ملوك فرنسا ، ومن كان قبل الثورة من ملوكها ، ومن أخبار حكوماتها أكثر مما نعرف من تاريخ أجدادنا .

ولم أقل إنني كنت أجهل ذلك مثل جهلهم ، لأنني قرأت بنفسي من صغري كتبا من كتب التاريخ ، مررت على صفحاتها كلها ، ما فهمته منها استوعبته ذاكرتي ، وما لم أفهمه جزت به . فلم أكن بتاريخ الإسلام بمثل جهل الرفاق ، وإن كنت في العلم بتاريخ فرنسا مثلهم . بل أنا لا أزال إلى الآن أعرف التاريخ الفرنسي من أوله إلى آخره ، وأعرف الثورة الفرنسية الكبري وما كان فيها يوما بعد يوم ، وأروي الكثير من أخبار رجالها .

هذه ما صنع الفرنسيون : أضعفوا العلو م الإسلامية ، وجاءوا باللغة الفرنسية وزاحموا بها اللغة العربية ، وضيعوا التاريخ الإسلامي ووضعوا مكانه تاريخهم ، حتى نشأ أولادنا على جهل بتاريخنا .

هذه كلها ، ويقابلها أمر لعله كان أشد علينا ، وآلم لنفوسنا ، وأسوأ عاقبة فينا ، هو العمل على نزع حجاب الطالبات ، وعلى تعويد النشء على الاختلاط . كان ذلك ميدان نزاع طويل ، وجهاد مرير ، وعمل دائم من المشايخ ، ومن ورائهم جمهور الأمة المسلمة في الشام ، والداعين على هذا المنكر والعاملين عليه . .

(ذكريات ـ صفحة)

* * *

سابعاً : فوائد عامة .

الهمزة في أول الكلمة لا تكون إلا على الألف ، أما التي تجيء في وسطها ، وتجيء المشكلات منها . فقاعدتها هي :
أن أقوى الحركات الكسر ، ثم الضم ، ثم الفتح ، فإن كانت الهمزة مكسورة ، أو كان ما قبلها مكسورا ، كتبت على نبره ، أي على سن . فإن لم يكن كسر وكان ضم وفتح ، كتبت على واوا ، وإن كانت مفتوحة فعلى ألف ، إلا إن كان قبلها ياء مثل (هيئة) فتكتب على سن .

والهمزة في آخر الكلمة تتبع حركة ما قبلها ، فإن كان ما قبلها ساكنا وضعت على السطر وحدها . في هذه الجمل المعدودة خلاصة شاملة عن كتابة الهمزة في وسط الكلمة . لا أعرف أمة في الدنيا يجهل أبناؤها لسانها جهل أبناء العرب بلغة العرب . إني لأكاد أسمع اللحن المنكر والخطأ الفاحش في كل مكان ، وأراه يمشي على كل لسان ، حتى من نعدهم من كبار الأدباء . لاسيما إن قرؤوا نصا مرويا .
ولو عملتم مسابقة بين الأدباء في قراءة صفحة واحدة بلا غلط ولا تسكين أواخر الكلمات من كتاب أدبي ككتاب البيان والتبيين مثلا ، أو أمالي أبي علي القالي ، أو كامل المبرد ، وجعلتم لذلك جائزة ما نالها إلا القيل .
(ذكريات [illegible] – صفحة [illegible]

❊ ❊ ❊

ودعوا المناقشة بينكم في الأمور الاجتهادية ، ومالا جدو ى منه ولا نفع فيه ، فلقد ضاع من وقت هذه الأمة ومن تفكير أبنائها .

ما لو أنفق بعضه في العلم النافع لسبقنا به في طريق الحضارة سبقا بعيدا ، وما دام أمامنا عدو واحد هو الكفر البارز والمستتر ، والفجور الظاهر والباطن ، فلنحارب هذا العدو أولا ، ولنصمد له جميعا ، ولندع الخلاف بيننا معشر أهل الدين إلى ما بعد ذلك . ولا يبلغ بنا ضيق الفكر وقصر النظر ، أن نجعل همنا كله توافه الأمور .
(فصول إسلامية صفحة [illegible])

❊ ❊ ❊

وملاك الأمر كله أن يكون منكم فرق كفرق الجيش ، كفرقة للعلم والانقطاع إلى كتبه ن وفرقة لدعوة المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم ، وفرقة لدعوة غير المسلمين ، وفرقة لمحاربة الدعارة والمذاهب الضالة ، وفرقة للعمل في التشريع الإسلامي .
وثقوا بأن المستقبل لنا ، للإسلام ، إن العالم اليوم على فم البركان ، والناس صفان يتباريان أيهما يسبق فيحمل إلى الدنيا الموت والخراب ، ولا أمل إلا بكم ، بشباب المسلمين ، فإن لم تحققوا الأمل ، يستبدل الله بكم قوما غيركم ، أمة حية ترفع راية الإسلام ، ونبقى نحن لا دنيا ولا دين . ولن يكون ذلك إن شاء الله أبداء ، لن يكون وفينا الصالحون المصلحون ، والعلماء العاملون . .

(فصول إسلامية صفحة□□□،□□□))

* * *

إن الفرنسيين كانوا أشد عناية بلغتنا ، وأحرص عليها ممن جاء بعدهم . وهذا حق ، ولكن ليس الفضل لهم فيه وإنما لأولئك الغير (جمع غيور) على العربية ، الذين كانوا يدفعون الفرنسيين إلى العناية بها ويخوفونهم عواقب إهمالها ، وكانوا يصنعون ذلك حبا بها ودفاعا عنها ، وحفاظا على القرآن الكريم الذي أنزل بها .

وتمشي اليوم على الألسنة كلمات صارت ملكا للناس جميعا ، وعدت من اللغة العامة ، وأنا أعرف تاريخ الكثير منها ، وشهدت مولده . فكلمة "عبقرية" ممن وضع الشيخ عبد القادر المغربي ترجمة لكلمة "حيني" الفرنسي، وكلمة فيزياء ، وكلمة حيوانات برماية من وضع التنوخي ، وكلمة "عفوي" ترجمة للفظ الفرنسي "سيونتانت" من وضع سليم الجندي ، وفي مصر يقولن "تلقائي" بدلا من عفوي .
وكلمة "هاتف" للتلفون وسيارة ودراجة ، وضعت في أوائل النهضة العربية . وكان أسبق البلاد إلى هذا التعريب الشام أي سوريا ، ثم العراق ثم حمل العبء الأكبر مجمع اللغة العربية في القاهرة .
وكان في مجمع دمشق أوائل العهد بالانتداب الفرنسي لجنة دائمة لتعريب المصطلحات والأسماء . واذكر أن شيخنا المبارك مرت معه في الدرس إحدى هذه الكلمات ، فلم نتنبه لها ، فقال : إن هذه الكلمة كلفت الدولة مئة ليرة . يوم كانت مئة الليرة راتب وكيل وزارة . .

(ذكريات □ـ صفحة□□□،□□□،□□□)) .